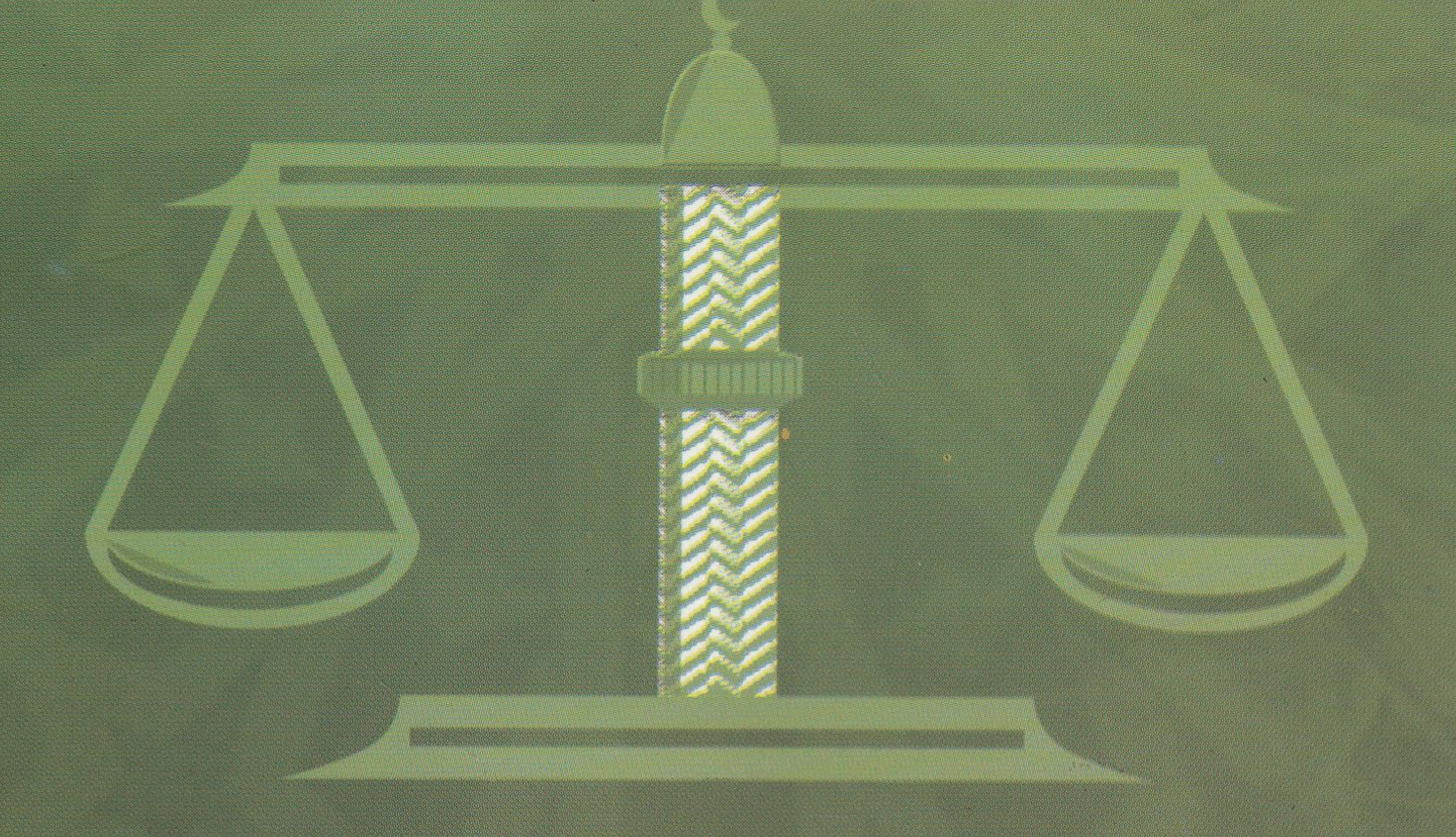
د. حمدى الفرماوى

سيكولوجية الوسطية لتعزيز الاعتدال ومواجهة التطرف





مكتبة الأنجلو المصرية

سيكولوجية

الوَسَطيَّــــــــة

(لتعزيز الاعتدال ومواجهة التطرف)

دكتور

حمدى على الفرماوى

أستاذ علم النفس التربوى

جامعة المنوفية

٢٠١١

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، إدارة الشئون الفنية .

الفرماوى، حمدى على .

سيكولوجية الوسطية- لتعزيز الاعتدال ومواجهةالتطرف

تأليف : حمدى على الفرماوى . ـ ط١ . ـ

القاهرة : توزيع مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠١١.

١١٢ ص ، ١٧× ٢٤ سم

١ـ علم النفس التربوى ٢ـ التطرف ٣ـ الاعتدال

أـ العنوان

رقم الإيداع : ٢٣٨٤٣

ردمك :١-٢٦٩٩-٥-٠٥-٩٧٧ تصنيف ديوى : ٣٧٠.١٥

المطبعة : مطبعة جامعة المنوفية

توزيع : مكتبة الانجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com
Website : www.anglo-egyptian.com

يوماً بنينـــا قصور المجد شامخـــــةً

والآن نســـــأل عن حُلم يوارينـــــا

أين الإمام رسول الله يجمعنـــــــا؟

فاليأس والحزن كالبركان يُلقينـــــــا

دينٌ من النور بين الخلق جمعنـــــــا

ودين طه .. وربُ الناس .. يُغنينـــــا

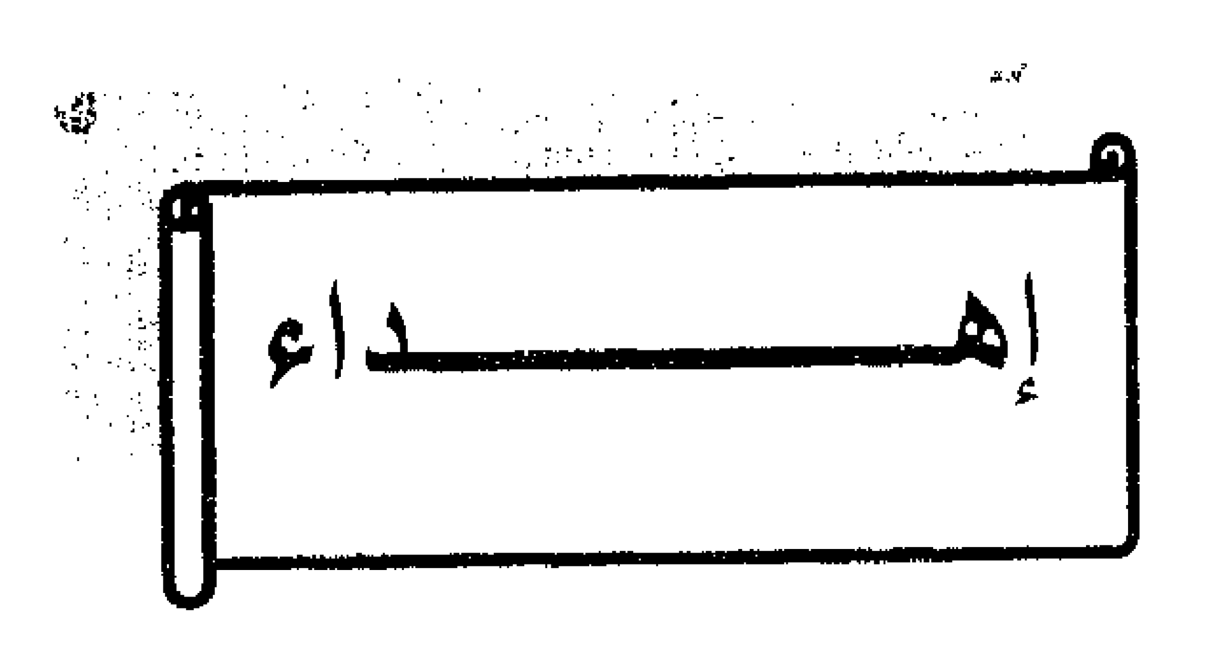
يا جامع الناس حـــــول الحق قدوهنت

فينا المروة .. أعيتنـــــا مآسينـــــــا

هل من زمان نقي فى ضمائرنـــــــا ...

يُحيي الشموع التى ولت .. فَيُحيينا ..؟

من شعر فاروق جويدة



إلى كل من يحمل شمعة في ظلام دامس ...

وإلى كل من يبحث عن الهداية والاعتدال ...

وإلى كل صاحب رسالة متسلحًا بالإخلاص والإتقان والاحتساب ...وإلى كل صاحب فكر ورؤية إيجابية يدفع بها المجتمع إلى التماسك والتقدم

أهدى إليه هذا العمل المتواضع

تقديم الكتاب

بقلم الأستاذ الدكتور: آمنة نصير
أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا لك الحمد وسعت كل شيءٍ رحمةً وعلماً

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد

خير البرية والمثل الأعلى للوسطية

وبعد

عندما يغوص الباحث في أعماق النفس البشرية ليستخلص منها مفاتيح الخير وسبل الخلاص من أمراضها وشططها من خلال الدراسة العلمية، فلا بد أن نقدر هذا الجهد ونعتز به، وخاصة حين تأتي هذه الدراسة في ثوب علمي وعقدي رصين .. ويزداد تقديرنا لها حين تُدعم بالنصوص القرآنية الدالة والأحاديث النبوية المناسبة للسياق.. وحيث كان هذا المنهج طريقاً ومقصداً هاماً للفقهاء وعلماء الفلسفة الأخلاقية الأوائل أمثال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي والإمام الفقيه الحنبلي أبو الفرج بن الجوزي، وتلميذه شمس الدين ابن القيم الجوزية، وغيرهم.

لذا أري أن الدراسة الحالية تعد انعكاساً متميزاً لاهتمام الإسلام بالإنسان المُستخلف في الأرض لتعميرها، ولعبادة الله الذي خلقه في أحسن تقويم.

فهذه الدراسة أُعدها علاجاً وتقويماً في بناء الإنسان المتصالح مع نفسه في السراء والضراء ، في الحب والكره ، وفي الإقبال على الدنيا التي هي حصاد للآخرة، وكل هذا في إطار الاتزان والتوازن وهما أهم خصوصية أوجبها الله على الأمة الإسلامية، والتى وصفها الحق سبحانه وتعالي بالوسطية: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً" (البقرة: ١٤٣) ثم يأتي الوصف الإلهي لهذه الوسطية بأنها خير أمة أخرجت للناس: " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.."

(آل عمران: ١١٠)

بهذا الوصف وهذه المسئولية، جاء هذا البحث القيم؛ والذي ركز على البناء النفسي المتكامل والمتوازن كمحور مهم للتوجه السليم، إضافة إلى تناوله لمبدأ مهم في الطبيعة البشرية وهو مبدأ (الازدواجية السوية) والتى عالجها المؤلف على ضوء خبرته العلمية بخبايا النفس متناولاً العلاج التربوي لها وتطويعها حتى تصل إلى منهج الوسطية والأخذ بها في إشباع دوافع وغرائز الإنسان دون إفراط أو تفريط ، وعندما يصل الإنسان في مجاهداته إلى قوة المناعة النفسية السوية على ضوء إرادة الله للإنسان الذي قدم له الضوابط والمسالك السوية عن طريق ممارسة أركان وشعائر هذا الدين، فإن ذلك يمنح الإنسان النضج والمنعة أمام معوقات طريق الوسطية، ويتحقق ذلك من خلال المعرفة الجيدة البعيدة عن الانحراف والتي تقربنا من الموضوعية، وتأخذ الإنسان إلى الاعتدالية مع المجتمع المحيط به.

أما الخاتمة فجاءت قراءة جيدة ودقيقة في تعزيز الوسطية من بداية مراحل الطفولة حتى مرحلة الشباب، ولم يغفل المؤلف دور المؤسسات الدينية والدعوية ومدي تأثيرها في تشكيل ثقافة المجتمع.

كل التقدير لهذا العمل العلمي المتميز فيما تناوله الأستاذ الدكتور "حمدي الفرماوي" من قضايا تمس الجانب الإيجابي للإنسان في هذا المجتمع، والتي تعد في إطار التنمية البشرية السليمة لبناء مجتمع قوي صحيح البنية ومتكامل، مع تطبيق ذلك على أرض الواقع بدلا من حبسه واختزاله في أروقة ومدرجات الجامعة في حيزها المغلق.

مع تمنياتي بالجزاء العظيم من رب العالمين

أ.د/ أمنة نصر

أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية

جامعة الأزهر

لماذا هذا الكتاب ... ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

"إياك نعبد و إياك نستعين". صدق الله العظيم

وجدت نفسى فجأة أمام تقصير أكاديمى فى حق المعرفة السيكولوجية، عندما تلقينا فى قسم علم النفس التربوى (الذى انتسب إليه) دعوة للاشتراك فى ندوة تُقيمها جامعة طيبة بالمملكة العربية السعودية عن "دور الجامعات العربية فى تعزيز الوسطية بين الشباب" وحينذاك شعرت بالتقصير حيال هذا المنهج (منهج الوسطية) باعتباري مسلما من جهة وباحثاً في علم النفس من جهة أخرى ، ومتسائلا، كيف لم أكتب فى الوسطية حتى الآن .. والتي محورها الأساسى فى نظرية لى قد نُشرت عام ٢٠٠٩م فى كتاب بعنوان "نظرية الركائز الأربعة للبناء النفسي" (فهم سلوك الإنسان فى ظلال الفرقان) ..؟

وبدأت الكتابة فى البحث الموجه إلى جامعة طيبة، وانتهيت منه، وبعثت به، لأجد نفسى أمام أفكار وأبعاد وزاويا بحثية علمية أخرى متعددة عن الوسطية ما زالت تتطلب التأمل ومن ثم الصياغة المناسبة، فبدأت الكتابة مرة ثانية لأجد نفسى أمام مشروع الكتاب الحالى ...

وكان من الطبيعى أن تكون لغة السيكولوجى مختلفة عن علماء الدين فى تناول الوسطية فهي تمثل نهجاً سلوكياً للإنسان، ولابد لعلم النفس أن يكون له دورا فى وضع المعنى السيكولوجى لهذا المفهوم، حتى يستجلى الخصائص السلوكية للسلوك الوسطى والسلوك المضاد ، وأن يبحث - أيضاً - فى جذور الوسطية، وما إذا كان لها أصل فى بناء الإنسان النفسى .. وكذلك المُعوّقات النفسية التى يمكن أن تقف حائلاً دون اتخاذ الإنسان للوسطية سلوكاً..

وهكذا تناول الكتاب الحالى عن الوسطية موضوعات لم تتطرق إليها كتابات أخرى، خاصةً بين المتخصصين فى العلوم الإنسانية، أقول ذلك فى الوقت الذى يعتصرنى الألم على الحال الذي وصلنا إليه فى الدراسات النفسية أو السيكولوجية، فقد كتمنا أنفاس علم النفس ودراساته داخل مُدرجات الجامعة، وقُمنا

باختزال دوره في المجتمع، فلم نسمح له بتناول ظواهرنا السلوكية المستجدة، بل حنطنا مفاهيمه العميقة وأبعدناها عن المفاهيم الإسلامية العظيمة والواقعية .. في الوقت الذي نعلم عن مدى تأثر "فرويد" بالتعاليم اليهودية في تنظيره للإنسان..!

لقد استوردنا أبعاد الطبيعة الإنسانية - التى هى أصل التنظير - من الغرب، وغفلنا عن أركان الطبيعة الإنسانية فى شريعتنا، ونعلم أنها الحق لأنها قد صيغت بواسطة خالقها .. ولذلك استوردنا نظريات غربية كثيرة فاسدة وتركنا بضاعتنا الطازجة الطيبة، والتى من السهل أن نسود بها على الغرب.

من هنا كان الكتاب الحالى .. ليقدم مفهوم الوسطية إلى الدراسات النفسية مناقشاً لأبعادها المتعددة ، وأرجو أن ينجح فى ذلك فى الوقت الذى انحسر فيه الفكر الوسطي فى منطقتنا العربية الإسلامية، وساد التطرف، وارتفع صوت المتنطعين، وتراجعت الاعتدالية فى سلوكنا وتوجهاتنا الوجدانية لتطغى على معاملاتنا انحرافاً وتطرفاً ... وفى الوقت الذى اغتصب فيه دُعاة الكراهية والتطرف ساحتنا الثقافية والإعلامية والتعليمية، فنشروا الفتنة، وكادت أن تختفى التوجهات الإيجابية متمثلة فى السماحة، والتفكير الموضوعي، واستباق الخبرات .. .حتى أن بعض الدعاة الرسميين قد افتقدوا الحكمة والموعظة الحسنة فى تبليغ الدعوة ومالوا إلى التشدد والتنطع وغفلوا عن خطوزة المسئولية المرتبطة بالرسالة الدعوية، فقد يدعون إلى التجرد بعيداً عن السلطة، ثم تراهم أكثر الناس ارتباطاً بها ! ويطالبون الناس بالتعفف ويتكالبون هم على المادة ! ويدعون الناس إلى أدب الحوار، ويضيقون هم بالرأى الآخر!!

فقد غلب على بعض الدعاة فى دعوتهم للوسطية ذلك المعنى الايديولدجى، الذى يخدم توجهات حزبية أو فئوية أو سلطوية ...

من جهة أخرى، فقد بعدت مناهج التعليم عن الإعداد النفسى للإنسان، واحتلت أجهزة الإعلام مساحة كبيرة جداً على مدار اليوم لتبث فى كثير من برامجها ما يُعزز التطرف ويُنمى التعصب بين أفراد الأمة..

من هنا دعوت نفسي وأدعو زملائى من الباحثين فى العلوم الإنسانية والتربوية أن ينتبهوا إلى الظواهر السلوكية الجديدة علينا، متوجهين إلى طلابهم

عن طريق الموعظة الحسنة لتوظيف التربية فى مجال العـــلاج لهــذه الظـــواهر، واضعين أنفسهم موضع المرشدين والموجهين للأخلاق الحسنة بين هؤلاء الشباب.

ولنعد عند تنظيرنا الأكاديمي للإنسان إلـــى تراثنـــا الإســـلامى ومفاهيمـــهِ العظيمة، حيث إن من بين المعجزات الكبرى لقرآننا الكريم هى في عمق تناولـــه لأسرار النفس البشرية ... ومن هنا يبدأ دورنا نحن المتخصصـــين فـــى العلـــوم الإنسانية.

أرجو أن يكون فى هذا العمل المتواضع نفعاً لطوائف المجتمـــع المتعـــددة، راجياً ربي سبحانه وتعالى أن يجعله فى ميزان حسناتى يوم القيامة "**يوم لا ينفـــع مال ولا بنون إلا من آتى الله بقلب سليم**"

المؤلف

د. حمدى الفرماوى

شبين الكوم فى ٥/١٠/٢٠١٠

فهرس الموضوعات

الموضوعات	رقم الصفحة
تقديم الكتاب ... بقلم أ.د آمنة نصير	٤
لماذا هذا الكتاب ..؟	٦
الفصل الأول: مفهوم الوسطية بين الفكر الإسلامى والسيكولوجى	١١
- مفهوم الوسطية ودلالته فى الإسلام.	١٢
- الوسطية عقيدة وسلوك.	١٥
- الوسطية والفروق الفردية.	٢١
- ثمرات الوسطية للفرد والمجتمع.	٢٣
الفصل الثانى: جذور الوسطية فى البناء النفسي للإنسان	٢٥
- نبذة مختصرة عن ركائز البناء النفسي.	٢٦
- ركيزة التكامل والتوازن كمحور للتوجه الوسطي.	٣١
- مبدأ "الازدواجية السوية" مفسراً للوسطية.	٣٤
- مجاهدة النفس فى سبيل الأخذ بالوسطية.	٣٥
الفصل الثالث: الوسطية فى البناء الوجدانى للإنسان	٣٩
- الوسطية وإشباع دوافع الإنسان.	٤٠
- الوسطية وإشباع عواطف الإنسان.	٤٢
- الوسطية وأساليب المناعة النفسية.	٤٨
- الوسطية والنضج الانفعالى.	٥٨
الفصل الرابع: مُعوّقات نفسية فى طريق الوسطية	٦٣
- الإدراك المُشوّه والأسلوب المعرفى.	٦٥

رقم الصفحة	الموضوعات
٦٩	- التفكير غير الموضوعي.
٧٨	- الاتجاهات النفسية السلبية.
٧٩	- نمط الشخصية التسلطية.
٨٥	**الفصل الخامس:** فى سبيل تعزيز الوسطية
٨٦	- قراءة في المشهد المصري والعربي.
٩٣	- تعزيز الوسطية عبر مراحل الطفولة والشباب.
١٠١	- تعزيز الوسطية بين شباب الجامعة.
١٠٨	- دور المؤسسات الدينية والدعوية.
١١٢	كُتب أخرى للمؤلف

مفهوم الوسطية بين الفكر الإسلامى والسيكولوجي

- مفهوم الوسطية ودلالته الإسلامية.
- الوسطية عقيدة وسلوك.
- الوسطية كمفهوم سيكولوجى.
- الوسطية والفروق الفردية.
- ثمرات الوسطية للفرد والمجتمع.

في الفصل الحالي نقدم الوسطية كمفهوم إسلامي، ودلالات هذا المفهوم في القرآن الكريم، ونحاول أيضا تحديد الوسطية كمنهج عقائدى سلوكي في ضوء المفاهيم النفسية (السيكولوجية) التي تتعلق بدراسة الإنسان، مثل الفروق الفردية ، إضافة إلى النظر للوسطية في ضوء أطرافها، وما إذا كان يمكن تحديدها علي مُتصل يحدد مستوياتها .....

أولاً : مفهوم الوسطية ودلالته الإسلامية

الوَسَط في اللغة العربية هو اسم لما بين طرفي الشيء، وأوسط الشيء أفضله وأخيره، كما يدلنا على ذلك المعجم الوسيط ، والوساطة تعنى التوسط في سبيل الحق والعدل، فتوسط "فلان" أى أخذ منطقة الوسط بين الجيد والرديء، والأوسط أى المعتدل من كل شيء.

من هنا فإن لفظ الوسطية لغوياً يعني الأخذ بالأوسط بين شيئين أو موقفين، أو طرفين أياً كان موضوعهما، لكن هذا الوسط لابدأن يكون هو الأعدل، أو الأجود، أو الأفضل، فخير الأمور أوسطها.

أما عكس مفهوم الوسطية فتعبر عنه ألفاظ التشدد والتطرف والتصلب والجمود والغلو، فكل من جاوز الحد وغلا فهو قد بَعُد عن الوسط ، وبالتالى أكثر تعرضاً للخطر وأبعد ما يكون عن الحماية والأمان، أيضاً، كل من تجاوز حد الاعتدال فقد تنطع، ولذلك يحذرنا رسول الله ﷺ، فيقول " ألا هلك المتنطعون " وكررها ثلاث ... أى هلك كل من يَبعُد عن الوسطية.

وقد مدح رب العزة والجلال التوسط في الأمور، وذم التطرف أو الانحراف، أو الخروج عما هو جاد.

يقول تعالي:

" وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ....." (الحج: ١١)"

" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ " (المائدة: ٧٧)

ولكن الله رءوف بعباده فقد يَسر على الإنسان ولم يُحمله ما لا طاقة له به، مُعلمًا الإنسان التيسير لا التعسير طريقًا للوسطية ..

يقول تعالى:

"مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى" (طه: ٢)

"وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى" (الأعلى: ٨)

" رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ" (البقرة: ٢٨٦)

وقد ورد مفهوم الوسطية في القرآن الكريم بمدلولات متعددة، توضح أبعاد هذا المفهوم وتستجلي معانيه .... ومن هذه الدلالات:

١. جاء المفهوم بمعنى العدل والخيرية وعدم المغالاة، وجعل هذه المعانى متمثلة في أمة كاملة ...

يقول تعالى:

" وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً...." (البقرة: ١٤٣)

" كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ" (آل عمران: ١١٠)

فالخيرية تعنى الإيمان الشامل، يحوطه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٢. وجاء المفهوم بمعني الوسط بين مستوى مرتفع ومستوى منخفض مما نأكل......

يقول تعالي:

" مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ...... " (المائدة : ٨٩)

٣. وجاء المفهوم بمعنى العدل والحكمة ..

يقول تعالي:

" إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " (النحل: ٩٠)

٤. وعبر القرآن عن الأخذ بعكس الوسطية، في ألفاظ الغلو، والتشدد، والتعسير، والظلم ، والذي فيه تجاوز عن الحق ، وبلفظ الإفراط والذي يعني التطرف .

يقول تعالى:

" لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ " (النساء: ١٧١)

" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ " (المائدة: ٧٧)

" إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " (لقمان: ١٣)

" وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً "

(الكهف: ٢٨)

" قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا....." (الأنعام: ٣)

فالتطرف أو الغلو يدل على أن الإنسان فى حالة من الجمود العقلى أو التعصب .. على النحو الذى لا يسمح له بالرؤية والإدراك الجيد لمصالح الناس، أو مقاصد الشرع، أو ظروف العصر، أو مستجدات الموقف، ويُغلق أمام هذا الإنسان نوافذ المعرفة والحوار البناء، ولا يستطيع أن يوازن ما عنده مع ما عند الآخرين من أفكار وأحكام .. لذلك من الصعب عليه أن يصل إلى الأكثر عدلا أو الأرجح ...

من هذه الدلالات القرآنية العظيمة يتضح مكانة الأخذ بالوسطية، وأنها محور تشريعي للبشر وأن الأخذ بها يعبر عن استقامة السلوك، واتباع الحق والعدل، فيهتدي بها الإنسان إلى الأجود والأفضل والأيسر...

لذلك نجد هذا المحور السلوكي المتمثل في الوسطية ينعكس في توجيهات حياتية سلوكية للإنسان في القرآن الكريم..

يقول تعالي:

" وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً" (الإسراء: ٢٩)

" يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأعراف: ٣١)

" وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً " (الفرقان: ٦٧)

وهكذا تُبعدنا الوسطية عن الغلو والتشدد والإسراف والتقتير، وتقترب بنا من العدل والحق والتيسير... لتكون الحياة أجود وأكثر استقامة، فالوسطية هي الطريق المستقيم...

يقول تعالي:

" وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ" (الأنعام: ١٥٣)

" اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ...." (الفاتحة: ٦، ٧)

من هنا جعل الله عزوجل الطريق المستقيم هو طريق الخيار للذين أنعم عليهم ، وهو بين طريقيّ المغضوب عليهم والضالين ...

ثانياً : الوسطية عقيدة وسلوك

لقد قام التشريع الإسلامي للإنسان على أساس التوازن السلوكي بين الدين والدنيا ، بين الروح والمادة ، فهو الدين الخاتم، وهو الدين الجامع والشامل المتوازن، ذلك على خلاف ما جاءت به الديانات الأخرى ، تلك التي انحازت إلى طرف على حساب الآخر، فديانة قد انحازت إلى المادة على حساب الروح ، وأخري قد تطرفت إلى إشباع التوجه الروحي على حساب المطالب المادية .. لكن الإسلام جاء وسطا في التوجه ، وسطا في العقيدة والعبادة ووسطا في المعاملات.

يقول تعالي:

" وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا "

(القصص: ٧٧)

" رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (البقرة: ٢٠١)

وقد روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه: جاء ثلاثة رهط بيـوت أزواج النبي يسألون عن عبادته. "فلما أخبروا .. قالوا: وأين نحن من النبي الذى قد غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فإنى أصلي لله أبدا ، وقـال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبـدا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكـذا؟ أمـا والله إنى أخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر، وأصـلى وأرقـد ، وأتـزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى" صدق رسول الله

لقد جاء الإسلام إذن ليصحح التطرف السلوكي والذي ما زال ينعكس فـي توجهات فكرية معاصرة ضالة متمثلة في الفكر الرأسمالي ، ذلك الذي يحث علـى الإسراف والتمتع بالحياة وملذاتها، أو في توجهات الفلسفة الهندية أوالشرقية، حيث الزهد وحرمان النفس.. وفي التوجهين تطرف وتشدد يخالف الطبيعـة الإنسـانية، التي جاء الشرع الإسلامي مطابقاً لها.. فلقد فاقت عقيـدة القـرآن الكـريم كـل محاولات الشرق والغرب فى إحداث التوازن فى المجتمع، إذ ليست للفردية طغيان علي المجتمعية، وليست مطالب المجتمع بطاغية على مطالب الفرد، ومعنى ذلـك أنه فى الوقت الذى يتاح لكل من الفرد والجماعة الحق فى التملك، فإن علـى كـل منهما كفالة الآخر ومراعاته، لذا جاء المجتمع فى عقيدة الإسـلام جسـداً وبنيانـاً متكاملاً، ففيه التوازن مُهيئاً البيئة المناسبة لتعزيز الوسطية.

لقد تجلى مبدأ الوسطية فى تنظيم العلاقة بين الدين والـدنيا، بـين الـروح والمادة بين الربانية والإنسانية، بين الفردية والجماعية، بين الوحي والعقل، وبـين الواقعية والمثالية..

من هنا أصبح الأخذ بالوسطية واجب شرعي ، فطبقاً للوسـطية كتشـريع ومنهج، يكون الإنسان مدعوا إلى الاعتدال بين الوحي بما فيه من غيبيـات ومـا يدركه العقل من محسوسات، ويتوسط بين حقوقه الفردية وحقوقه الجماعية ويعدل بين الواقع حيث لا يجب إهماله وبين عدم التقصير في النزعـة للمثاليـة، أيضـاً مطلوب من الإنسان أن يوازن بين الثابت والمتغير، فيتمسك بالثوابت في الوقـت الذي يواجه فيه المتغير بمرونة وفهم.

ولذا قام المنهج الإسلامي في التربية والتنشئة للانسان على ثلاثة محاور مهمة ، وهي:

- الشمول والتكامل.

" وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً...." (البقرة: ١٤٣)

- والإيجابية السوية.

" كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ " (آل عمران: ١١٠)

- والواقعية المثالية.

" لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا " (البقرة: ٢٨٦)

إن المحاور تتيح التكامل والإيجابية والواقعية في ظل مبدأ الوسطية كمنهج وتشريع، ومن ثم انسجام العقل مع التكاليف، حتى لا يحدث فتوراً للإنسان أو نفوراً من تكاليف العبادة ، فيكون رسوخ العقيدة في النفس بقناعات عقلية، ليكون الاطمئنان...

وما أحوجنا اليوم، في ظل الأوضاع الراهنة في بلادي والبلاد الإسلامية، أن نعزز هذا الواجب في قلوب المسلمين، وعن طريق الخطاب العقلاني المستنير نصل بهم إلى فهم الوسطية ، فعدم فهم المسلم للوسطية يجعله بعيداً.. بعيداً عن فهم دينه كله، لذا فإني أري أن فهم الوسطية يجعل الإنسان يجيب بموضوعية عن السؤال المهم .. لماذا هو مسلم ؟.

فأين الأوساط التربوية والإعلامية والثقافية من هذا المدخل المهم.. وتوظيفه تربوياً وثقافياً وإعلامياً.. حتى يمكن أن نتجنب الكثير من العنف والتطرف السائد الأن فى مجتمعنا...؟

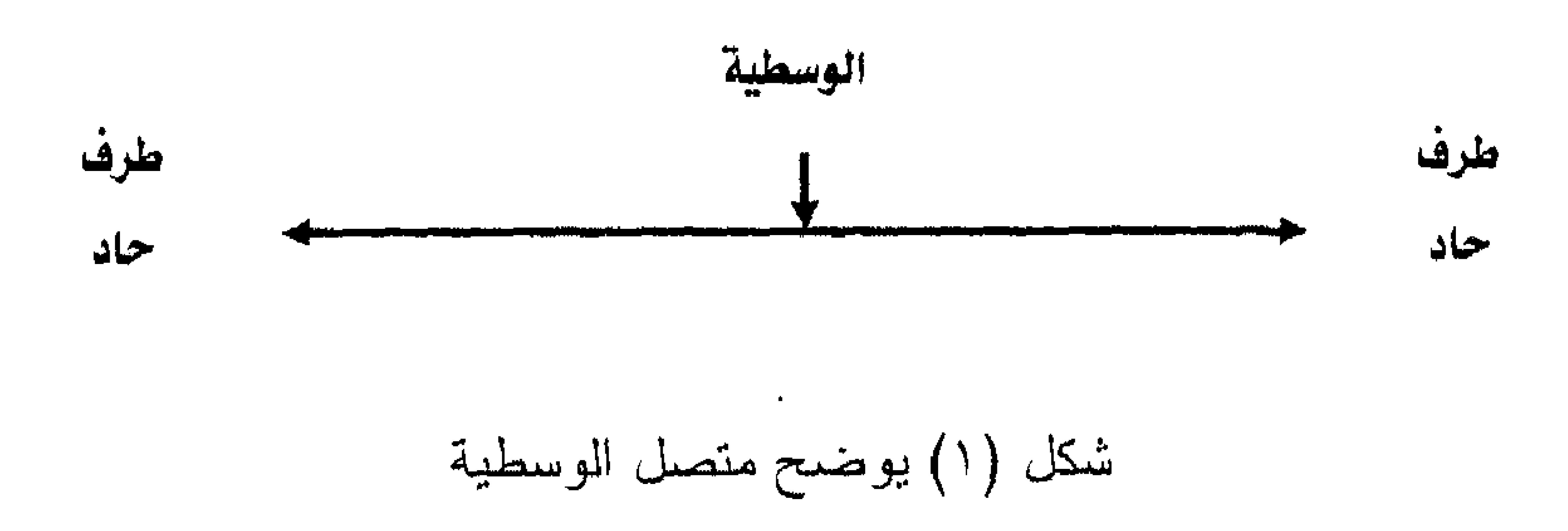
ثالثا: الوسطية كمفهوم سيكولوجى

لقد وجدنا أن الوسطية تعني توسط الإنسان في سلوكه وأحكامه، فلا يتطرف إلى التشدد أو التعسير أو اللين أو التفريط ، ولا يخرج عن الجاد الذي

يبعده عن الهدف.. ومن هنا كانت الوسطية مبدءاً شرعياً ومنهجـاً يحكـم سـلوك الإنسان..

وفي ضوء المفاهيم السيكولوجية يمكن صياغة تعريف للوسطية قد يكـون مستقبلاً محورا للدراسات النفسية علـى اخـتلاف مقاصـدها فـيمكن القـول أن الوسطية، هي: " الأسلوب الذي يميز الإنسان في تفكيره وتوجهاته، فينعكس علـى أحكامه ومواقفه وسلوكه اعتدالا وتوازنا، وحيث لا يميل سلوكيا إلى طرف حـاد يبدو فيه التشدد أو طرف يبدو فية التفريط " واستكمالاً لهذا التعريف، وزيادة فـي تبيان أبعاد الوسطية في ضوء المفاهيم السيكولوجية فان الوسـطية تعتبـر توجـه سلوكى للأفضل أو الأجود أو الأيسر بين طرفين ، وهـى أيضـا توسـط بـين ضعيفين، فالتشدد ضعف والتفريط ضعف وتخاذل.

ومن جهة أخرى، يمكن اعتبار الوسطية هى رمانه الميزان على متصـل ، وهذا المتصل يبدأ بطرف حاد لينتهى إلى طرف حاد آخر كما يوضـحه الشـكل التالي:



شكل (١) يوضح متصل الوسطية

وهنا يختلف طبيعة كل طرف طبقا للموقف أو السلوك..لذا يختلـف هـدف الوسطية أيضا ، فقد تكون الوسطية للأجود ، أو الأفضل، أو الأيسر، أو الأخيـر، أو الأعدل، أو الأحق.. وهكذا.

وقد يتضح الأمر ، حين نقوم بتطبيق هذا المتصل للوسـطية فـي مجـال العقيدة والعبادات ، كالأتى:

(١) الوسطية في العقيدة.

- المسلمون وسط في الإيمان بالله ، بين طرف ينكرون وجود الله كالملحدين ، وطرف يؤمن بوجود الله ، لكنه يُشبه الخالق بالمخلوق .. والوسطية هنا تهدف إلى الحق ، فالله موجود وليس كمثله شئ.
- المسلمون وسط في الإيمان بالملائكة ، بين طرف ينكرون وجودها ، وطرف يعبدها ويعتبرها بنات الله .. والوسطية هنا هى الحق.
- المسلمون وسط في الإيمان بالرسل والأنبياء ، بين طرف ينكر الرسل كالملحدين ، وطرف يجعلونهم آلهة أو أبناء الله.
- المسلمون وسط في الإيمان بالكتب السماوية ، بين طرف ينكر نزول الكتب السماوية ، وطرف يحرفون هذه الكتب.
- المسلمون وسط في الإيمان باليوم الآخر، بين طرف ينكر البعث، وطرف يؤمن به على غير حقيقته.
- المسلمون وسط في الإيمان بالقضاء والقدر، بين طرف ينكر علم الله جلت قدرته، وطرف ينفى الاختيار، فيجعل الإنسان ضحية للجبر(فلااختيار) .

(٢) الوسطية في العبادات:

تقوم العبادات جميعاً في الدين الإسلامى على أساس وسطى يجمع فيه الإنسان بين الدين والدنيا، فليس مطلوباً أن يصلي الإنسان طوال ساعات الليل والنهار، أو يصوم بإفراط، أو يزكى بكل ماله ولا يترك لأولاده شيئاً، ولا يكون أيضاً - تاركاً للصلاة، أو الصيام أو الزكاة، بل ليس مطلوباً أن يقترض الإنسان من أجل أداء فريضة الحج، بل هى لمن استطاع إليها سبيلا، ومع هذه الطقوس الدينية المعتدلة، عليه أن يقوم بالتزامات نحو إعمار الأرض، ورعاية أسرته، وأن يوفى حق الجماعة والمجتمع ، فلا إفراط في العبادة على حساب واجباته الدنيوية ولا تفريط في العبادة في سبيل لهو الدنيا وزينتها.

يقول تعالى:

" وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا "

(القصص: ٧٧)

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّـهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ "

(الجمعة ٩: ١٠)

لكن لا يجب أن نترك هذا الجزء دون إثارة قضية أخرى تكشف عن مدى إمكانية تعميم مبدأ الوسطية، وخاصةٍ في مجال الأخلاق..

فحين نتأمل السمات والخصائص النفسية نجد منها ما هو ثنائي القطب، والأخرى أحادية القطب .. لذلك فإن مبدأ الوسطية ينطبق على كثير من السمات ولا ينطبق على الباقى منها ..، فلقد عرفنا أن الوسطية تمثل رمانة الميزان بين طرفين ..، أو قطبين حادين .. لذا فالأخذ بالوسطية، هو الاعتدال بين القطبين ..

معنى هذا إن السمة ذات القطب الواحد، هى سمة محمودة على الإطلاق أو مذمومة على الإطلاق، وليس ذلك خاضع لمبدأ الوسطية.

فالكرم مثلاً - سمة ثنائية القطب، حيث يتوسط الكرم منطقة بين الإسراف أو التبذير في طرف (قطب) وبين البخل أو الشح في طرف آخر.

والشجاعة أيضاً ثنائية القطب فهى تتوسط بين طرفين مذمومين، هما الحمق والجبن .. لكن الصدق سمة محمودة أحادية القطب فلا تخضع للوسطية كمنهج، وحيث لا يمكن وضعها على متصل الوسطية ... وفى الوقت نفسه يقابلها على النقيض منها سمة مذمومة، هى الكذب وهى في حد ذاتها أحادية القطب أيضاً.

وهكذا، نستطيع أن نصل إلى قاعدة إجرائية تحدد مكان السمات الأخلاقية بالذات بالنسبة لمبدأ الوسطية ..

فإن كانت السمة ثنائية القطب، فإن المستوى الذى لا ينحاز لقطب منها تمثله الوسطية المحمودة، أما إذا كانت السمة أحادية القطب فهى إما محمودة على الإطلاق، أو مذمومة على الإطلاق وتبعد بذلك عن مُتصل الوسطية.

وفى ظلال هذه القاعدة، لابد من التنويه بأن الوسطية لا تكون إلا خياراً للعدل أو الحق أو الأجود أو الأفضل للإنسان .. وإنها دائماً تمثل نزعة الإنسان للجمع بين متطلبات المادة ومتطلبات الإشباع الروحى في امتزاج سوى ..

رابعاً: الوسطية والفروق الفردية

إن مبدأ الوسطية يعترف بالاختلاف بين الناس في السمات والخصائص والتوجه، والميول، ويؤمن بالتعددية التى تعطى المجتمع رونقاً وثراءً .. وهذه الاختلافات والتباينات بين البشر في المجتمع الواحد، وبين المجتمعات، يعبر عنها الفكر السيكولوجى بمصطلح الفروق الفردية Individual differences والذى يعنى – على وجه التحديد – مدى اختلاف الإنسان الفرد عن متوسط مستوى الجماعة التى ينتسب إليها في سمة ما، سواء أكانت هذه السمة جسمية أم عقلية أم نفسية.

وهناك قانون للفروق الفردية، يعنى بتوزيع أى سمة (جسمية، نفسية، عقلية) بين الناس، كما أرادها خالق الناس سبحانه وتعالى.

فأى سمة تتباين في توزيعها بين الناس على النحو الذى يمكن تمييزها في ثلاثة مستويات ، وهى:

- الأغلبية من الناس والتى تصل إلى ٧٥% تقريباً يتسمون بالمستوى المتوسط للسمة (متوسطى الذكاء مثلاً).
- نسبة ١٢,٥% تقريباً من الناس يتسمون بمستوى مرتفع من السمة (مرتفعى الذكاء مثلاً).
- نسبة ١٢,٥% تقريباً من الناس يتسمون بمستوى منخفض من السمة (منخفضى الذكاء مثلاً).

فإذا مثلنا نتائج قياس أى سمة بين مجموعة من البشر (تمثل مجتمعاً صغيراً أو كبيراً) تمثيلاً بيانياً، في ضوء العلاقة بين عدد أفراد العينة ومستويات السمة، لظهر لنا المستويات الثلاث التى أشرنا إليها في منحنى يُطلق عليه المنحنى الإعتدالى Normal Curve.

لكن يجب أن تنوه بأن هذا التوزيع يتأثر بعدة عوامل، منها: الوراثة والعمر الزمنى، ونوع الجنس، ولكن حين نقوم بالكشف عن مستويات توزيع أى سمة بين عينة من الناس يمثلون مجتمعاً معيناً، فإننا نجد انحرافاً بمستوى ما عن التوزيع المثالى، فهذا التوزيع يتأثر بعدة عوامل أيضاً ، منها: طبيعة السمة، وطبيعة العينة، وطبيعة الأداة المستخدمة في قياس السمة.

إن الفروق الفردية بين الناس هي سبيل التكامل في المجتمع .. فقد فطن العرب قديماً إلى معنى الفروق الفردية، يقول الأصمعى " لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا ".

ولو شاء الله عز وجل لجعل الناس أمةً واحدةً، لكن في اختلاف الأديان والأخلاق والأعراف والألوان والألسنة والأرزاق والعقول، تكامل وتآلف.

يقول تعالي:

" وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ..... " (هود: ١١٨، ١١٩)

" أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً "

(الزخرف: ٣٢)

"وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ" (النحل: ٧١)

من هنا نقول أن مبدأ الوسطية هو الطريق المستقيم الذى يتعامل مع مبدأ اختلاف الناس وتباينهم في السمات والصفات.، وكذلك فإن إيمان الناس بهذا الاختلاف بين البشر يجعل الإنسان السوى أكثر ميلاً لاتباع الوسطية في حكمه ومعاملاته مع أفراد المجتمع ..

فإيمان المسلم بهذا الاختلاف والتباين الطبيعى بين البشر، يجعله متقبلاً للآخر، مؤمناً بالمواطنة وحقوقها، متخذاً الوسطية في الحكم بين الناس منهجاً وسبيلاً .. وهنا لا يبقى مكاناً للطائفية أو الفتنة بين طوائف المجتمع، أو عنصرية تجاه مجتمع أقلية ينتمى إلى عقيدة أو لون أو مهنة .. فكلٍ بسماته وخصائصه متجه إلى أريحية معينة في الحياة لا تتناقض أبدا مع أريحية الآخر.

خامساً: ثمرات الوسطية للفرد والمجتمع

فى الحال المتردي الذي عليه الأمة الإسلامية اليوم، علينا أن نُذكر أنفسنا بأهمية الأخذ بمنهج الوسطية، لجنى ثمارها العديدة والعودة بأمتنا الإسلامية إلى تقدمها وازدهارها، فالإسلام لا يعنى إلا التقدم والتحضر ..

لقد أخذنا بظاهر الدين في حياتنا اليومية وبعدنا عن جوهره .. أصبحنا لا نترجم الإيمان في القلب كعقيدة إلى عمل وإنتاج وإعمار في أرض الله، أصبحنا نؤدى العبادات كطقوس ولا ينعكس هذا في أداءات يومية تذهب بنا إلى مصاف الأمم المتقدمة، أصبح دستورنا المتمثل في قرآن الله الكريم مجرد كتاب للبركة في جيوبنا وسيارتنا وتحت وسائدنا، ولم نعمل بما جاء به، بدليل أننا حتى الآن نستورد غذائنا وأدواتنا التى نستعملها في حياتنا من أبسطها إلى أعقدها، حتى أننا نستورد فانوس رمضان والسجادة والمسبحة !! إن هذا لا يجب أبدا أن يكون حالنا .. حال المسلمين ..

فليس الإسلام هو الصوَّر المختلفة للرقيا، وليس الإسلام فقط هو قراءة القرآن الكريم ، وليس الإسلام مجرد طقوس أدائية حركية، إن الإسلام أمل وعمل، منهج وحياة ، تميز وطموح ، نهضة وازدهار ...

والإسلام هو التفكير العلمي الذى يقودنا إلى التقدم ، وليس عبادة أصنام من الأعشاب تارة ، وتفسير الأحلام تارة أخرى .. إن هذا تحنيط للإسلام ..

الإسلام هو التفكير الموضوعي، الذى يقودنا إلى أن نناقش أمورنا المهمة التى لها صفة الأولوية، مثل: كيف نتقدم؟ كيف ننهض بأنفسنا؟ كيف نستخدم خاماتنا البيئية؟ كيف نوظف طاقات شبابنا؟ ..

أما أن تسيطر علينا بين الحين والآخر مناقشات حول أمور تافهة، مثل: موضوع النقاب .. نقاب أم الحجاب؟ .. والتماثيل .. حلال أم حرام؟ .. وأركان الزواج وأنواعه .. فهذا لا يدل إلا على تفكير خرافى وتطرف نحو التخلف ..

لقد بعدنا عن الوسطية كواجب شرعي سلوكي وأستبد بنا دعاة الظلام والتطرف الأسود، فزاد العنف بين أفراد المجتمع، واشتعلت الفتنة الطائفية، وازداد تخلفنا عن ركب الأمم .

إن الأخذ بالوسطية يصل بنا إلى الأعدل والأفضل والأجود.. ليسود الخير والعدل والحرية، ويتحقق التكامل والانسجام بين أطياف الأمة..

فالوسطية تعزز قبول الآخر.. في ظل فروق فردية بين أفراد المجتمع.. والوسطية تعزز حق المواطنة، فلا تعصب أو تحامل أو عنف ليتحقق الإخاء والتعاون، والوسطية تُنقى النفس من أدرانها الأخلاقية وأحقادها القلبية، وأمراض الأثرة والأنانية.

والأخذ بالوسطية يدفع الإنسان إلى أداء الواجب قبل أن ينادي بحقوقه، ذلك لأنه يراعي حق المجتمع وحق الناس بجانب حقه.

وبالوسطية يتحقق للإنسان الأمن النفسي والاجتماعي، ومن ثم الصحة النفسية، ذلك لأن المجتمع الذي ينتسب إليه يراعي مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة... وفي ظل هذه البيئة ينعدم التظالم ويزول التناحر، وتذهب الرزيلة ويُقضي على الفساد.

ومع الوسطية في المجتمع يكون التوازن في توزيع الثروة بين أطياف هذا المجتمع، لتزدهر العدالة الإجتماعية ويسود السلام الاجتماعي وتنمو ثقافة المواطنة.

ولقد أصبح من واجب المسئولين، تعميم ثقافة الوسطية.. عبر تعليم متدرج في مراحله ، من الصفوف الابتدائية وحتى الجامعة.. إن ثقافة الوسطية يعيش في ظلها كل طوائف المجتمع الدينية.. فلا حرج من إقرارها في مناهج التعليم... وسوف أعود إلي هذا الأمر في الفصل الأخير بإذن الله...

إن ثمار الوسطية كثيرة كثيرة.. في شجرة طيبة ، أصلها فى البناء النفسي للإنسان، وفروعها فى سلوكه القويم ... وهذا هو موضوع الفصل القادم ..

جذور الوسطية في البناء النفسي للإنسان

- نبذة مختصرة عن ركائز البناء النفسي
- ركيزة التكامل والتوازن هي محور التوجه الوسطي فى فطرة الإنسان
- مبدأ "الازدواجية السوية" مفسراً للوسطية
- مجاهدة النفس في سبيل الأخذ بالوسطية

في الجزء الحالي.. وجب أن نعود إلى البناء النفسي للإنسان وأركانه أو ركائزه لنبحث عن أصول الوسطية.. هذا من منطلق التسليم بأن كل تشريع إسلامي لابد أن يتطابق مع إمكانات الإنسان النفسية والعقلية، ولابد أن يكون هناك ما يؤدي بالإنسان إلى قبوله والانسجام معه.

لذا فإن الجزء الحالي، يناقش أربعة موضوعات مهمة، لعل في مناقشتها تتضح جذور الوسطية في البناء النفسي للإنسان إضافة إلى اشتقاق مفاهيم جديدة سيكولوجية، ووضوح أبعاد نفسية أخري تلعب دوراً في تعزيز الوسطية أو نموها عند الإنسان....

أولاً: نبذة مختصرة عن ركائز البناء النفسي

إن سعيّ الإنسان الدائم لفهم الطبيعة الإنسانية، كان وما زال توجهاً مهماً للغاية، حيث إن تحديد هذه الطبيعة هو المحور الأساسي والمنطلق الصحيح للتنظير النفسي والتربوي للإنسان.. والحديث في الطبيعة الإنسانية دائماً يتناول مبادئ عامة وأسس تتعلق بالبشر جميعاً.. لكن المقصود بمفهوم الطبيعة الإنسانية في مجالنا الحالي هو تلك المبادئ الأساسية الديناميكية التي تتحكم في عمل المجال النفسي..

وإذا كان الفكر الغربي قد حاول مراراً أن يحتوي الطبيعة الإنسانية في جوانبها المختلفة، فإن الفكر الإسلامي قد استطاع أن يقدم فهماً واعياً واقعياً للطبيعة الإنسانية.. وعلى ضوء هذه الحقيقة فإن المؤلف الحالي قد توصل في عام ١٩٩٧ إلى منظور في البناء النفسي، تم إعادة نشره عام ٢٠٠٩ في كتاب بعنوان "نظرية الركائز الأربعة للبناء النفسي" وقد قدمت هذه النظرية تصوراً للبناء النفسي قائم على أربع ركائز مهمة، هي:

١. قوي الذات الإنسانية (الروح - العقل - قابليات الفطرة)
٢. النفس وقواها..
٣. التكامل والتوازن بين قوي الذات
٤. الأعمار الثلاثة للإنسان.

فجوهر هذا البناء النفسي يتمثل في القوي الثلاث، حيث هي أطراف التفاعل في البناء والركيزة الأساسية التي ينبثق منها وبها بقية الركائز التالية:*

- التشكيل الذي عليه النفس في إنسان ما.
- التكامل بين عمل قوي الذات مع بعضها البعض للوصول إلى توازن.
- إشباع الإنسان لمتطلبات المرحلة العمرية التي يمر بها.

وسوف أستعرض هذه الركائز باختصار، فقط للتعريف بها وكتمهيد للوصول إلى البحث عن جذور الوسطية في أركان هذا البناء.

- **قوي الذات الإنسانية:**

من البديهي القول أن أيّ ذات إنسانية، فيها الروح التي تمثل قوة في الإنسان والعقل كقوة أخري، وقابليات الفطرة التي في إمكانية إثرائها وتطورها قوة ثالثة.

يقول تعالي:

" فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ "

(الحجر: ٢٩)

فبالروح يسمو الإنسان فوق الخصائص والسمات المادية، وينزع إلى القيم والمعارف..

ويمكن القول استدلالاً من النشاطات الروحية للإنسان أن الروح كمكون فريد في الإنسان إذا غلب على سلوك الإنسان مال سلوكه إلى الاستقامة وسادت الفطرة النقية على المادية وغرائزها، أما إذا سكن النشاط الروحي وخمدت جذوته، انحرفت الفطرة واضطرب السلوك وسادت الغرائز وغلبت كثافة المادة على شفافية الروح ونقاءها.

وأما العقل، بكل معانيه الواردة في القرآن الكريم فهو القوة المتصلة بكل مطلب من مطالب التكليف، والتكليف يختص بمنهج الله للإنسان حيث افعل ولا

---

* حمدي الفرماوي (٢٠٠٩): نظرية الركائز الأربعة للبناء النفسي (فهم سلوك الإنسان في ظلال الفرقان)، الأردن، دار صفاء.

تفعل، لهذا نجد آيات القرآن الكريمات تنتهى غالباً بوظيفة من وظائف العقل (أفلا يعقلون) (أفلا يتدبرون) (أفلا تتذكرون) وبهذا يصبح العقل حُجة للمُكلِّف سبحانه وتعالي، حُجة على المُكلَّف، حُجة على الإنسان.

لكن الفطرة بمعناها العام تعنى إمكانات الإنسان الطبيعية ممثلةً فيه جسمياً ومعرفياً وعقلياً وأخلاقياً، ولكن فى قابليتها للإثراء والنمو والتطور والتعديل تمثل قوة مهمة، وبين الإنسان والآخر فروق فى القابليات سواء فى مجموعة قابليات بعينها، أو فيما بين قابليات الفرد كلها ... وقد تعبر هذه القابليات عن نفسها فى دوافع الفرد وانفعالاته وعواطفه واستعداداته.

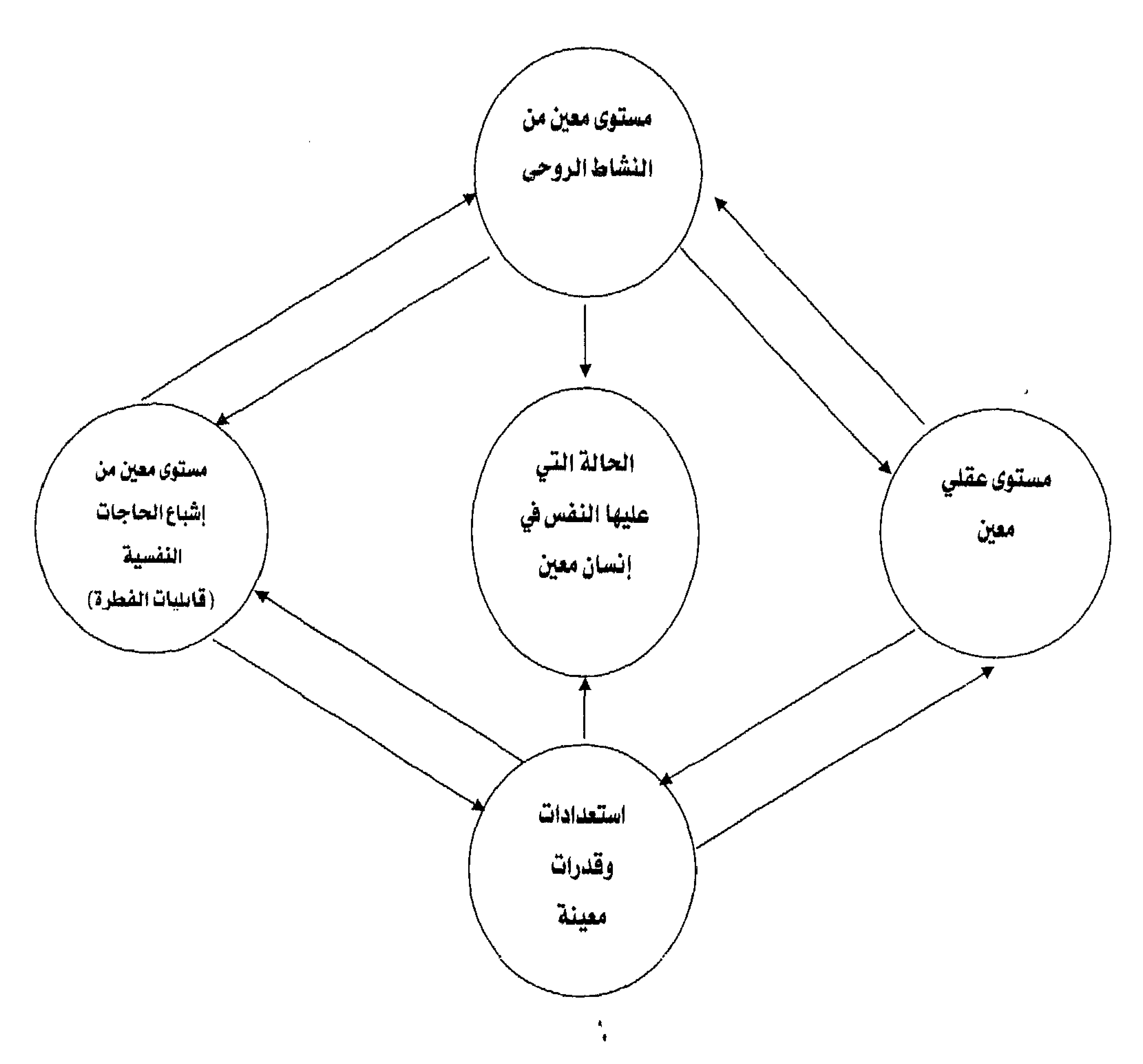
- **النفس وقواها:**

النفس فى الإنسان ليست هى الروح فقط أو العقل فقط أو قابليات الإنسان الفطرية، فقط، ولكن النفس هى تشكيل من هذه القوى الثلاث على نحو ما يتم عبر تربية وتنشئة اجتماعية، لتميز فرداً عن آخر ..

ونستطيع القول، أن النفس بصفة عامة هى القوة الحيوية فى الإنسان والتى تشمل قوة الإرادة كما تشمل قوة الدافع، وتعمل واعية كما تعمل غير واعية ...

والحديث عن النفس لا ينتهى فى ضوء دلالات الآيات الكريمات فى القرآن الكريم ... حيث لا يتسع الكلام هنا لاستعراض هذه الدلالات، ولكن اكتفى بالإشارة بأن النفس تمثلها الفطرة فى الوليد، ثم أثناء التربية والتنشئة تتحدد معالم هذه النفس وتتشكل على ضوء كم النشاط الروحي الذى توهج داخله، والاستعدادات الفعلية التى نمت، ومستوى إثراء إمكانات الفطرة.

وفيما يلي شكل يوضح الروافد التي يعتمد عليها تشكيل النفس في إنسان ما:



شكل (٢) الروافد التى يعتمد عليها تشكيل النفس فى إنسان ما

- **ركيزة التكامل والتوازن**

مكونات الذات الإنسانية، وهى الروح والعقل وقابليات الفطرة تعمل فى وعاء واحد، فهى ليست أطرافاً منفصلة، بل هي كيان واحد ممتزج فى تركيبة فريدة من صنع الله جلت قدرته، ولا فضل فيها لمكون على آخر.

وتعمل هذه المكونات فى تكامل وظيفى يجمع المكونات فى كل واحد، وهذا الكل هو الذى يميز إنسانية الإنسان ويحدد طبيعة النفس فيه.

وهذا التكامل الوظيفى يصنع توازناً فى تحقيق الهدف، فالهدف هو التوازن بين المادة والروح (وسوف نتناول هذه الركيزة كمحور للوسطية، لاحقاً).

*** الأعمار الثلاثة للإنسان:**

للإنسان أعمار ثلاثة، وبلغة علم النفس نقول، إن الإنسان يمر بثلاث مراحل كبري، أوجزهما القرآن الكريم، حيث يقول المولى عز وجل:

" اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً .. " (الروم: ٥٤)

وهذه المراحل تتضمن النمو والنضج من أجل مواجهة مسئوليات ومتطلبات كل مرحلة، والدارس لسلوك الإنسان لابد أن يراعي هذه الركيزة الهامة، فلابد له عند تقييم السلوك الحالى لإنسان ما أن يتم تقييمه للسلوك طبقاً لمتطلبات مرحلة النمو الحالية التى يمر بها هذا الإنسان.

ولا يفوتنى أن أنوه بأن المراحل العمرية الكبرى، تلك التى يمر بها الإنسان فى حياته، قد فُصلت فى قرآن الله الكريم، بل أشار القرآن الكريم إلى بعض خصائص كل مرحلة من الجانب النفسي والعقلى .. لكننى أود هنا أن أستلهم الوسطية ومدلولها فى فهم المراحل العمرية الثلاث، فالمتأمل فيها يجدها تمثل منحنى لنمو الإنسان ... وهذا المنحنى يمثل قوة بين ضعفين ووسطاً بين طرفين .. طرف فيه ضعف الطفولة وحاجتها للرعاية، وطرف آخر يمثل ضعف الشيخوخة، لكنه ضعف مشوب بخيرة السنين ..

أما الوسط ففيه القوة، قوة الشباب والرشد والأشد .. وهذا الوسط يتطلب من الإنسان استغلاله على الوجه الأمثل فى عبادة الله والإكثار من الأعمال الصالحة، وعلى النحو الذى يمثل له مخزوناً طيباً وزخيرة من الحسنات تلك التى تعوضه فى نقص قد يتسبب عن الضعف الثانى فى مرحلة الشيخوخة ...

يتضح مما سبق الركائز الأربعة للبناء النفسي ونخرج من هذا الاستعراض المختصر جداً بالحقائق الآتية:

١. لابد من النظر للإنسان نظرة كلية تكاملية فى ضوء حقائق البناء النفسي..

٢. الإنسان مخلوق تتنازعه قوتا المادة والروح.

٣. لابد أن نتلمس أبعاد الفطرة وقابلياتها فى سلوك الإنسان..

٤. اعتبار ركيزة التكامل والتوازن بين قوى الذات هى محور التفسير لأبعاد السلوك وديناميات الشخصية.

ثانياً: خاصية التكامل والتوازن كمحور للتوجه الوسطي للإنسان

أشرنا سابقاً، أن العمل يسير بين قوى الذات فى صورة تكاملية ديناميكيـــة، ويتم هذا التكامل وفق خاصية التوازن فى الإشباع لحاجات كل قوة سواء أكانـــت القوة الروحية أم قوة العقل أم قوة القابلية للإثراء والنمو والتطور لمكونات الفطرة. وإذا كان ارتباط التكامل الوظيفى بالتوازن النفسي يشكل خاصـــية يقـــوم عليهـــا التفاعل داخل البناء النفسى، فلابد أن ذلك ينعكس على ســـمات الإنســـان النفســـية ونمط الشخصية، وبالتالى السلوك.

فالإنسان روح ومادة، عقل وجسم، والتكامل بين قواه يحدد الإنسانية فيـــه، كذلك فإن التوازن أو إختلال التوازن فى إشباع الحاجات النفسية لكل قوة يفسر لنا الكثير من سلوك الإنسان وتوجهاته النفسية.

وإن الروح والعقل وقابليات الفطرة تعمل كلها فى وعاء واحد وهى متكاملة ولا تعمل منفصلة. فليس للجسم وحده رغم العناية به قيمـــة دون ارتباطـــه بقلـــب سليم، وحين لا يستخدم الإنسان عقله فى إدراك السلوك أو لا يدرك بـــه نعـــم الله وقدرته يصير كالأنعام.

من الطبيعي إذاً أن يتأثر القلب بالعقل ويتفاعل مـــع اســـتعدادات الإنســـان الفطرية، كي ينتج سلوكاً متزناً أو سلوكاً وسطا .. سلوك يحمل المادية التى تلـــزم الإنسان كى يعيش على الأرض، ممتزجاً بالروحية التى تجعله موصولاً مع خالقه. يقول تعالي:

"وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ" (المنافقون: ٤)

ولا خير فى حسن الجسوم ونبلها ۔ إذا لم يزن حسن الجسوم عقول

نخلص من ذلك، أن العمل فى مكونات البناء النفسي للإنسان يقــوم علــى خاصية التكامل، ذلك من أجل الوصول إلى التوازن، فالتكامــل امتــزاج وظيفــي يهدف إلى الإشباع المتوازن والمعتدل بين المتطلبات المادية والمتطلبات الروحية. ولكن التوازن هنا يعنى وسطية أيضاً، فليس مقبولاً ذلك الإشباع المادى الخــالص الذى يدل على غلبة الشهوات والملذات ...

وأيضاً لا يستطيع الإنسان الوصول إلى الملائكية حيــث إشــباع روحــي خالص، فلا هذا ولا ذاك يتفق مع أبعاد الطبيعة الإنسانية، فليس الإنسان بمكوناتــه البشرية قابل لأن يكون شيطاناً ولا هو يستطيع أيضاً أن يكون ملاكاً.

إن الطبيعى هو الوسطية بين المادية والروحية فلا يكون لأحــدهما جــوْر على الآخر، والإنسانية فى الإنسان تكتمل بــامتزاج الماديــة بالروحيــة ليحــدث التوازن، أى إشباع مادى لا يطغى على إشباع الحاجات الروحية، وإشباع روحــي لا يقهر نزعة الإنسان وارتباطه بالأرض، وقد تعلــو ذاتيــة الإنســان وتســمو مشاعره، وقد تنزل وتهبط، لكن ذلك لا يُخرجه عن إنسانيته الكلية، فلن يلحق بعالم الملائكة أو الشياطين - كما قلنا - ويتطور الإنسان وينتقل من مرحلة الطفولة إلــى الصبا والشباب إلى الشيخوخة، وفي كل مرحلة من مراحل حياته لا يكون أوصالاً متقطعة ولا ذاتاً مفككة.

إن إشباع دوافع الإنسان وحاجاته المادية مطلوب، لكن فى حدود ما أحــل الله، والإشباع الروحي مطلوب دون طغيان على المادية الممثلة فى ذات الإنسان. ومن ثم فإن لهذه الخاصية المحورية فى الذات الإنسانية انعكاساتها على السلوك، فإما سلوك متوازن يجمع البُعد المادى مع الروحي، وإما اختلال، حيث التطــرف إلى مادية على حساب الجانب الروحي، أو توجه روحي يهمل المادية .. نخلــص

من ذلك إلى التأكيد على أن ركيزة التكامل والتوازن بين قوى الذات هي المنبع والمصدر الأصلي للتوجه الوسطى عند الإنسان .. فالمقياس الأول لتوجه الإنسان إلى الوسطية، هو فى قدر استطاعته التوازن بين طرف المادية وطرف الروحية .. ويمكن اشتقاق صور الوسطية جميعاً من هذا المحور الأصيل فى فطرة الإنسان .. وحيث جاء التشريع الإسلامى قائم على الوسطية ومطابق تماماً لمكونات البناء النفسي فى الإنسان وتفاعلاته ..

يقول تعالي:

" وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً " (طه: ١٢٤)

" وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً "

(سورة الكهف: ٢٨)

أي تنفرط النفس بجميع قواها كحبات العقد، فيصير الإنسان مفككاً فلا تنسجم رغباته ودوافعه مع احتياجاته وقيمه، ضالاً الطريق.. ويتضح المصير في الآية القادمة جليا.. بين التوازن أو الاختلال.

يقول تعالى:

" فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى " (النازعات: ٣٧،٤١)

وإذا غلبت الأفكار الشاذة على الإنسان، فإنها تعطل وظيفة الإدراك..

يقول تعالى:

" وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ " (التوبة: ٩٨،٩٩)

فهؤلاء وهؤلاء يدفعون المال المطلوب، ولكن الفئة الأولي تتخذه غرامة مكروهة، ويتمنون العنت لقابضيه، لكن الفئة الثانية تتخذه زكاة محبوبة، تفرح النفس بأدائها، وتطلب الدعاء الصالح بعدها..

هنا نقول، بلغة علم النفس أن الأمر قد عاد إلى طبيعة الإدراك، فـالإدراك لدي الفئة الأولي قد شوّهه طغيان المادة أو سيادة النزعة الدنيوية، أما الإدراك لدى الفئة الثانية فلم يشوّه بنزعة المادة، ولا زالت الفطرة سليمة، لذا جاء التفسير للفعل مطابقاً للتوازن الذي أدي إلى سلوك اكتسب به الإنسان الإثابة والجزاء الحسن من خالقه.

ثالثاً: مبدأ "الازدواجية السوية" مفسراً للوسطية

إذا كان تكوين الإنسان هو قبضة من طين الأرض ونفخه من روح الله جل وعلا، فإن هذا الامتزاج طبقاً للطبيعة الإنسانية يُعبر عن ازدواجية في توجه الإنسان أيضاً، فانعكس ذلك على سلوك الإنسان، وكان هذا التكوين -كما أوضحنا سلفاً -مطابقاً تماماً للهدف من خلق آدم ووجوده على أرض الله بإذن الله.

أقول.. أن هذه الازدواجية في التكوين بين المادة والروح قد انعكست على سلوك الإنسان إيجابياً.. فهي "ازدواجية سوية" وليست ازدواجية سلبية، هذه الازدواجية في التكوين قد دعتنا لإطلاق "مبدأ الازدواجية السوية" كمحدد ومشخص لسلوك الإنسان*.. فبناءً على ذلك، كان لابد لسلوك الإنسان الطبيعي، أي السلوك السوي أن يجمع بين مادية وتوجه روحي.. فلا يكون متطرفاً إلى مادية بحتة أو توجه روحي بحت، لكن السلوك الطبيعي يجب أن يكون وسطياً.. من هنا كان مبدأ الازدواجية السوية محدداً الوسطية ومفسراً لها تفسيراً إجرائيا..

فإن أردنا تشخيص السلوك، وما إذا كان سوياً أم لا.. فلنبحث عن مدى توفر المادية والروحية معاً في توجه هذا السلوك.. فإذا اجتمع التوجهان كان سلوكاً سوياً، (أي وسطياً) أما إذا إستهدف السلوك توجه دون آخر فقد أصبح سلوكاً تطرفياً.. وفي هذا الشأن توجد بعض الحقائق التي يجب أن نضعها في الحسبان:

---

* لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى كتاب "نظرية الركائز الأربعة للبناء النفسي" (فهم سلوك الإنسان في ظلال الفرقان) للمؤلف الحالي.

١. إن الإنسان في سويته يمارس كل أنواع النشاط بكينونته المترابطة، حتى ولو غلب جانب من جوانبه على الآخر في لحظة من اللحظات، فهناك فرق بين أن يسود في لحظة ما، وبين أن تنفصل أجزاء من كينونة الإنسان وتعمل مستقلة طوال الوقت.

٢. إن توجه الإنسان إلى جانب في الحالة السوية مؤقت وغير دائم، فقد ينحرف نحو متطلبات جسدية ساعة ليعود إلى النشاط الروحي ساعة أخري.

٣. إن هذا التداول بين نشاط مادي ونشاط روحي يساعد الإنسان على التوازن في نقطة الوسط (لتكون الوسطية) تلك التي تلتقى فيها الروح بالمادة، أو المادة بالروح، ومن هنا فإن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، قد عبر عن مضمون الوسطية، سلوكا ومنهجاً، وحدد الموقف تجاهها.. عندما قال:

"إن لبدنك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لربك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه" صدق رسول الله

ونجده صلي الله عليه وسلم ما خُير بين أمرين إلا اختار أوسطهما، مالم يكن إثما ويحذرنا صلي الله عليه وسلم من التطرف حيث يقول "ألا هلك المتنطعون".... وكررها ثلاث ..

رابعاً: مجاهدة النفس في سبيل الوسطية

إذا كان التداول الذي يتم في نشاط الإنسان السوي على مستوي اليوم الواحد هو من أجل الاعتدال، فإن سرعة الوصول إلى نقطة الوسط أو الوسطية كمنهج أكثر استقراراً للسلوك يتطلب مستوي مرتفع من مجاهدة النفس.. لذا كان الإنسان الطبيعي في حالة مجاهدة مستمرة.. وتسير هذه المجاهدة في أربعة مسالك مهمة، هي: استنهاض الإرادة - الانشغال بالاستقامة - استباق الخيرات وتثبيت النفس - السمو والعفة.

١_ استنهاض الإرادة:

الإرادة قوة عظيمة من قوي النفس تلعب مع العقل الدور الفعال في الإدراك السوي والاختيار للأجود والأفضل، والعقل حين يتبصـــر الإرادة ويوجههـــا فـــي الطريق المستقيم يستشعر الإنسان قوي التقوى فيه، فيستمد العقل صفاءه من الروح لينعكس ذلك على النفس سمواً فوق غرائزها.

٢_الانشغال بالاستقامة:

حين تنشغل النفس بالحق والاستقامة يصعب أن تنشغل بالباطل..

يقول تعالي:

" مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ.." (الأحزاب: ٤)

فمن الصعب إذن على الإنسان أن ينشغل بأكثر من أمر في آن واحد، أمـــا إذا وضع الإنسان نفسه في المواقف والظروف الممهدة لغلبه الشهوات وصـــنوف الهدم، ومقدمات الفاحشة، هنا قد يغفل القلب وتتغلب الأهواء المزيفة.

يقول تعالي:

" وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً "

(سورة الكهف: ٢٨)

ويقول الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم "من غض بصره نـــوَّر الله بصـــيرته" صدق رسول الله.

٣_استباق الخيرات وتثبيت النفس:

يجب على الإنسان أن يجعل دائماً الخير سبيله ومقصده

يقول تعالي:

" وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ " (البقرة: ١٤٨)

فتكرار فعل الخير، هو تثبيت للنفس على التقوى والطريق السوي، وثبـــات النفس هو قمة التوافق النفسي..

يقول تعالي:

" وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ....." (البقرة: ٢٦٥)

" يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ "

(إبراهيم: ٢٧)

٤_السمو والعفة:

الأخذ بالسمو والعفة يمثل مسلكاً مهماً أيضاً لمجاهدة النفس ، والأخذ بالسمو والعفة لا يدل أبدا على ضعف في النفس البشرية، بل هو دليل على طهر النفس وتغلب التوجه الروحي، كذلك فإن تفضيل السمو والعفة يتم على مستوى وعي الإنسان، وبهذا المعني لا يصبح السمو لا شعوريا بل هو شعورياً يدركه الإنسان ويستمتع بإدراكه، فيعيش شعوراً روحانياً بتفضيل الفضيلة على غيرها من السلوكيات والإشباعات الغريزية التي تفقده ذاته.

فإذا لم يجد الإنسان من المال ما يستطيع به الزواج - مثلاً - فليصل بدافعه إلى السمو والإعلاء بالعفة التي تقوي الإرادة وتطهر النفس.

يقول تعالى:

" وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ "

(النور: ٣٣)

وليس المحرك للسمو داخل الإنسان قوانين أو أعراف أو أطماع، بل الهدف من السمو للنفس هو في السمو ذاته، فالسمو وكذلك العفة، يعتبران ضوابط نفسية مهمة للنفس تجعلها في حياء يليق بذات الإنسان، والحياء شعبة مهمة من شعب الإيمان، فالإنسان الذي لديه مستوي مرتفع من الحياء لا يسير إلا فيما يحفظ له كرامته والاعتزاز بنفسه.. حتى يصبح هذا الحياء من العوامل المهمة التى تجعل هذا الإنسان معتدلاً، محافظاً على السلوك الوسطي بعيداً عن التطرف..

إن هذه المسالك الأربعة في سبيل المجاهدة تعمل في تكامل أيضاً وتـؤدى الواحدة منها إلى الأخرى.. فالإرادة هي الممثلة للدفع القوي نحو كل من الانشغال بالاستقامة واستباق الخيرات، وهي في ذات الوقت التي تؤدى بالنفس إلى الثبات على المبادئ والقيم والأخلاق الرفيعة واستمرار المجاهدة، أمام السمو والعفة فيمثلان رياح النفس الذكية الطاهرة حتى يعيش الإنسان بحيائه في انضباط نفسى لا يؤدي به إلى ذُل أو إهانة، بل إلى تكريم لذاته وفى اعتدال سلوكى ملحوظ.

إن الحفاظ على مسلك الوسطية كطريق مستقيم يحتاج إذن إلـي مجاهدة للنفس.. والنفس تحتاج إلى المسالك الأربعة فى سبيل المجاهدة، ويمكن اعتبار المسالك الأربعة هذه ممثلة لمعايير موجبة توجه التربية لأطفالنا.. وسبل تدريب لشبابنا.. (نعود إلى ذلك الأمر في الفصل الأخير بإذن الله ....)

الوسطية والبناء الوجداني للإنسان

- الوسطية وإشباع دوافع الإنسان
- الوسطية وإشباع العواطف الإنسانية
- الوسطية وأساليب المناعة النفسية
- الوسطية والنضج الانفعالي.

يمثل البناء الوجداني في الإنسان تنظيماً مهماً من تنظيمات النفس داخله، ويتمثل البناء الوجداني في دوافع الإنسان وانفعالاته وعواطفه، فضلاً عن الإيحاءات والخواطر، ويتناول الفصل الحالي، ذلك الحال الذي عليه إشباع الإنسان لدوافعه وعواطفه في ضوء مبدأ الوسطية.. وكذلك الحال الذي يجب أن يكون عليه الإنسان من نضج لانفعالته وانعكاس ذلك على أخذه بالوسطية.

أولاً: الوسطية وإشباع دوافع الإنسان

الدافع Motive هو تكوين فرضي أو مُتغير وسيط في البناء النفسي، ويُستدل عليه من سلوك الإنسان في المواقف المختلفة، ويمثل قوة دفع لسلوك الإنسان في اتجاه ما على نحو ما، من جهة أخري، فإن الدوافع أو الحاجات الإنسانية تعمل لدي الإنسان في نظام مركب، فتعتمد على بعضها البعض، وتؤثر إحداهما في الأخرى، لتشكل محوراً من المحاور التى ترتكز عليها سمات شخصية الإنسان، في الوقت الذي تؤثر فيه السمات وخصائص المجتمع ومتطلباته على سيادة دوافع معينة على دوافع أخري.

وفي إطار نظرية الركائز الأربعة للبناء النفسي، فإن الدوافع يمكن تصنيفها إلى دوافع مادية، تلك التي تدفع الإنسان إلى سلوكيات مُعينة يقيم بها حياته على الأرض، ومن ثم البقاء والحفاظ على النوع، ودوافع روحية تدفعه إلى تأكيد ذاته وتحقيقها والسمو بغرائزها وتحقيق قيمة ومعني وجوده على هذه الأرض.

من هنا، تقول: أن سبيل تحقيق الإنسان للإنسانية كما أرادها الخالق العظيم، هو أن يسير هذا الإنسان في إشباع الدوافع في توازن على النحو الذي لا يؤدي إلى طغيان أيّ من النزعتين المادية أو الروحية على الأخرى.

فلا يمكن أن يعيش الإنسان على الأرض، محققاً البقاء والحفاظ على النوع، وهو منفصل عن اتصاله بالخالق ومحققاً لمعني وقيمة وجوده على هذه الأرض ..

من جهة أخري، لا ننسي الوظيفة التكاملية لعمل أركان البناء النفسي، تلك التي يمتزج فيها المادي بالروحي ، والروحي بالمادي لتكوين الخلطة السرية للسلوك السوي وفقاً لمبدأ الازدواجية السوية. (راجع الفصل الثانى)

لذلك فإن الفصل التام بين الدوافع إلي ما هو مادي بحت أو روحاني بحت يعتبر فصلاً تعسفياً، وليس موضوعياً.. إذ أنّ إشباع الدوافع في توازن لابد أن يجمع بين التوجه الروحي والمادي في آن واحد.

ومن دوافع الحفاظ على الذات: دافع الجوع والعطش، والدافع للراحة، والدافع للتنفس، أما دوافع الحفاظ على النوع، فمنها: الدافع للجنس، ودافع الأمومة، وأما الدوافع النفسية الاجتماعية والمشبعة بالتوجه الروحي، فمنها: الدافع للتدين ودوافع الإيثار، والدافع للحرية، ودافع التواد (التعاطف)، ودافع الإنجاز، والدافع للمعرفة..*

أعود فأكرر، بأن كل دافع من هذه الدوافع يعمل في تكامل مع دوافع أخري، لإشباع حاجة مشتركة لازمة للإنسان، وكل حاجة من الحاجات فيها توجه مادي للإشباع ممتزج بتوجه روحي.. وبقدر تحقيق إحداها للأخرى يكون مستوي الوسطية، التي فيها الاعتدال وطريق الله المستقيم، فمثلاً، كل إنسان منا داخله دافع التملك ودافع الخلود.. وكل منها يمكن أن يُشبع على نحو سوي، أو على نحو غير سوي.. فالذي يُشبع دافعه للتملك اغتصاباً لما يملكه الغير، ويتعدى على حقوق الناس، فقد تطرف بعيداً عن الطريق المستقيم، أما الوسطية فهي في التملك الحلال.. ذلك هو الحق الذي ليس فيه نهم التملك وشراسة الطمع.. وفي الحال الذي يملك فيه الإنسان ما هو حلال فقط.. فقد أوسط أي اتخذ الوسطية طريقه، فلا هو مال إلى طرف الطمع واغتصاب حقوق الناس، ولا هو استكان وتقاعص عن أن يسير في الأرض إعماراً وبحثاً عن الرزق.. ، أيضاً، نجد ذلك في وسطية إشباع الدافع في البقاء أو الخلود.. فالذي يؤمن بأن الخلود الحقيقي هو في الآخرة فقط سنراه يعمل لذلك ويكون في حالة استباق للخيرات. مجاهداً للنفس في سبيل التقوى.. حريص على تزكية النفس وتطهيرها.. وفي نفس الوقت يعيش دنياه مطمئناً، وبسيرة طيبة بين الناس.. وعلى النقيض من ذلك، هو الإنسان الذي يجعل الخلود هو في مجرد ولده الذي يُخلفه في مصنع أو تجارة أو إمارة، إن مثل هذا

---

* لمزيد من المعرفة عن الدوافع يمكن مراجعة كتاب متخصص للمؤلف الحالي بعنوان "دافعية الإنسان" (بين النظريات المبكرة والاتجاهات المعاصرة) بدار الفكر العربي.

الإنسان قد انتقص من قيمة ومعني الخلود الحقيقي وجعله في مجرد ولد ذكر يحمل اسمه، فمثل هذا الإنسان يعيش المظهر وليس الجوهر...

صن النفس وأحملها على ما يزينهـــا   تعش سالماً والقول فيـــك جميـــل
ولا تــــزين الـــــنفس إلا تجمــــلاً   نبا بك الدهـــر أو جافـــاك خليل
وإن ضاق رزق اليوم فاصبرإلى غد   عسي نكبات الدهرعنك تزول

ثانياً: الوسطية وإشباع العواطف

إن العاطفة تمثل مجموعة من الانفعالات التي تتشكل على نحو مـــا، لكـــن الفرق كبير بين العاطفة والانفعال، ففي حين يكون الانفعال مجرد تجربة عـــابرة، فإن العاطفة هي خبرة تكونت وتشكلت تدريجياً من مجموعة تجـــارب وجدانيـــة.. وللعواطف صور مختلفة، منها:

- عاطفة تتجه إلى شخص ما، من قبيل الصداقة.
- عاطفة تتجه إلى مُثل عُليا، مثل: حب الإنسان للحق أو الخير.
- عاطفة تتجه إلى جماعة ما، مثل: حب القائد لأفـــراد جيشـــه، والمـــدرس لتلاميذه، والرئيس لمرؤوسيه.
- عاطفة تتجه إلى الجماد، مثل: حب الإنسان لكائن ما، أو مكان ما..
- عاطفة تتجه إلى الحيوان، مثل: حب الإنسان للخيل..

عاطفة الحب:

عندما تسيطر عاطفة الحب على الإنسان فإن هذا الإنسان يسلك وفـــق مـــا يقربه إلى موضوع هذا الحب سواء أكان هذا الموضوع إنساناً أم مادة أم كائنا آخر.

ويمكن القول إن أول خبرة في الحب يمر بها الإنسان هي حبه لأمه؛ فـــالأم هي مصدر الأمن والسعادة للطفل الوليد، ثم شيئاً فشيئاً تتسع الدائرة بالطفل فتتعـــدد موضوعات حبه بدءً من أفراد أسرته إلى أفراد المجتمع وما تحويه البيئة.

ومع اتساع هذه الدائرة وتعدد موضوعات الحب، يظل الإنسان محتفظاً بحبه لذاته، بل إن حب الإنسان لذاته في مرحلة الطفولة المبكرة، تلك التى أطلق عليها علماء النفس "التمركز حول الذات" Egocentrism هي أساس من أسس نمو الطفل وتكوين شخصيته، فمن خلال هذا التمركز تتمايز الموضوعات الأخرى أمامه، سواء أكانت هذه الموضوعات آدمية أم مادية، فيتعرف عليها ويميزها ويحدد نفسه مقارنةً بها.

ثم تتحول مرحلة نموه من تمركز حول الذات إلى انفتاح على الآخرين. وهنا يمكن القول: إن عاطفة الحب تؤدي بالفرد إلى نمو شخصيته وزيادة انتمائه إلى أسرته والمحيط الاجتماعي.

وعاطفة الحب تلعب دور الدافعية، ففي إشباعها إعادة لتوازن الإنسان النفسي، من هنا كان لابد أن يكون الإنسان قادراً على أن يحب وأن يكون هو نفسه موضوعاً لحب الآخرين، أما أن يكون الإنسان منبوذا في الجماعة المنتمي إليها، أياً كانت هذه الجماعة فإن ذلك وحده يكون كافياً لكي يكون مصدر تعاسة لهذا الإنسان، وسوف تلعب هذه الحالة دوراً كبيراً في إعاقة حياته في جوانبها المختلفة.

والحب له صور عديدة ومظاهر مختلفة تختلف باختلاف موضوع الحب وأهداف الإنسان الحياتية، فهناك الحب المتمركز حول جمع المال، أو الجاه، أو السلطة، وهناك الحب المتمركز حول الأم أو الأب أو الأولاد والزوجة، كما أن هناك حب الإنسان لذاته (قريباً أو بعيداً من النرجسية) أما الحب السامي المتمثل في حب الله ورسوله وعمل الخير والصالح من الأعمال، فهو الحب المقترن بالإيمان.

ومن فيض القرآن الكريم نستنبط هذه الصور:

- حب الإنسان للناس، ذلك الذي يخلق التآلف والتراحم وتتوطد به العلاقات فتتماسك الجماعة...

يقول تعالي:

" إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً" (آل عمران: ١٠٣)

- حب الدنيا ومتاعها الذي يخدم إشباع الإنسان لدافع التملك والاستحواذ ويبعده عن الوسطية في المسيرة الدنيوية.

يقول تعالي:

"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ" (النحل: ١٠٧)

" زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ" (آل عمران: ١٤)

" وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ" (العاديات: ٨)

" وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً" (الفجر: ٢٠)

- حب الإنسان للكائنات الحية مثل الحيوان والطير والزهور والنبات.

يقول تعالي:

" إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ" (ص: ٣١،٣٢)

والمقصود هو حب الخيل أو الجياد، التي انشغل سليمان عليه السلام باختيارها، فعند بلوغ المعروض منها تسعمائة كانت الشمس قد غربت ولم يكن صلي العصر، فأغتم.

- حب الأولاد، حيث يشبع لدى الإنسان شعوراً بالعزوّة والأمومة والأبوة، وفى ذلك شعور بالسعادة ومصدراً للتواصل بين الأجيال.

يقول تعالي:

"الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً" (الكهف: ٤٦)

"وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً" (مريم: ٥، ٦)

قوله (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي) تعني الذين يلونى فى النسب كبنى العم، فإن زكريا عليه السلام يدعو ربه أن يهبه الولد الذى يحافظ على رسالته التى جاهد فى سبيلها، وليس الولد الذى يرى فيه خلوداً فى الدنيا ...

- حب الإنسان للجنس الآخر، حيث ينجذب الرجل تجاه المرأة والعكس صحيح. وتخدم هذه العاطفة إشباع الدافع الجنسي وتساهم فى تكوين الأسرة وتماسك المجتمع، ويتم التعبير عن هذه العاطفة فى ظل تكوين أسرة، حيث تكون الزوجة موضوع هذا الحب.

يقول تعالي:

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الروم: ٢١)

- أما التعبير عن هذه العاطفة فى حالة اللاسوية لدى الإنسان، فنجده فى انجذاب "زليخة" زوجة العزيز نحو يوسف عليه السلام وقد شغفها حبا، أى وصل بها الحب ليوسف شغاف القلب.

يقول تعالي:

" وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ" (يوسف: ٣٠)

- وفى حب الله ورسوله سمو ورفعة للإنسان وتحرراً وقوة، فبهما يسعد الإنسان فى تواصل ممتع بالدنيا مطمئناً للآخرة.

يقول تعالي:

"قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (آل عمران: ٣١)

" ... يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ... " (البقرة: ١٦٥)

والحب متبادل، فالله الخالق يحب عباده ويحب أن يتوب عبده ويستغفره، والتوبة الصادقة لعبد من عباد الله هي تعبير من الإنسان عن حبه لله وتعبير عن التطهر والتقوى والوفاء بالعهد.

يقول تعالي:

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ" (المائدة: ٥٤)

" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (البقرة: ٢٢٢)

" بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" (آل عمران: ٧٦)

والله سبحانه قد حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ..

يقول تعالي:

".. وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ.." (الحجرات: ٧)

والذى يحب الله سبحانه وتعالي يحب رسوله الذى هداه إلى سبل الإيمان وأصبح له القدوة والأسوة الحسنة.

يقول تعالي:

"لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً" (الأحزاب: ٢١)

" مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ..." (النساء: ٨٠)

بأربعة أرجو نجاتي وإنها ... لأكبر مخزون لدى وأكرم

شهادة إخلاص وحبي محمداً ... وحسن ظنوني ثم إني مسلم

١. عاطفة الكراهية

تتكون عاطفة الكراهية من عدة مشاعر وانفعالات: كالاشمئزاز والنفور والحزن وعدم التقبل. وسلوك الإنسان الناتج عن الكراهية يكون على العكس من سلوك الحب، حيث يتمثل سلوك الكراهية فى البعد والنفور عن الموضوع المكروه سواء أكان هذا الموضوع إنساناً أم مادة أم كائن غير إنسانى.

ويشير القرآن الكريم إلى كراهية المشركين لانتشار الإسلام، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ...

يقول تعالي:

" وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" (التوبة: ٣٢)

" لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ" (التوبة: ٣٣)

"فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" (غافر: ١٤)

ويشير القرآن الكريم إلى ما يحاوله الكافرون من إلصاق خاصية برب العزة جل وعلا، كأن يكون له بنات في الوقت الذى يكرهون هم فيه أن يبشر أحدهم بالأنثى ويتوارى عن القوم شعوراً بالعار ...

يقول تعالى:

" وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمْ الْكَذِبَ..." (النحل: ٦٢)

ورغم أن القتال الذى كُتب على المؤمنين مكروهاً فهو مطلوب للدفاع عن العقيدة والعرض والوطن، فالغاية محمودة ... فليس قتال اعتداء أو اغتصاب.

يقول تعالى:

" كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ..." (البقرة: ٢١٦)

٢. ويستخدم القرآن الكريم موضوعاً مكروهاً لا يستقيم مع الفطرة الإنسانية كمثير ينفر الإنسان كى ينتهى عن عمل غير مرغوب فيه، فيشبه النميمة المذمومة بأكل الإنسان للحم أخيه الإنسان، وفى هذا قمة فى التنفير، فذلك يجعل الإنسان فى حالة نفسية غير طبيعية أثناء إقباله أو ممارسته للنميمة.

يقول تعالي:

" أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ" (الحجرات: ١٢)

والإنسان لكونه غير قادر على معرفة كل شيء فيما يتعلق بحكمة الله القدير فى المواقف التى يواجهها فى حياته. وما إذا كان فيها الخير له .. فإن القرآن الكريم يوجهنا إلى عدم التسرع فى الحكم على الأشياء خيراً أم شراً، فما نتصوره شراً قد يكون فيه الخير الكثير.

يقول تعالي:

"وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً" (النساء: ١٩)

إن فى إشباع الدوافع وإشباع العواطف، مجالات مهمة لاتخاذ الإنسان للأوسط أو الأجود أو الأفضل فى سبيل الاتزان، وحفظ الكرامة، والسير فى الطريق المستقيم..

ثالثا: الوسطية وأساليب المناعة النفسية

رأينا أن بعض الدوافع الإنسانية تنتمي إلى الجانب الروحي بينما بعضها الآخر ينتمي إلى الجانب المادى، ومن ثم فإن الاعتدال فى إشباع هذه الحاجات يعنى نجاح الإنسان فى تحقيق التوازن، ومن ثم الوصول إلى مستوى مرتفع من الصحة النفسية.

وقد أشرنا إلى أن الإرادة كقوة من قوى النفس تلعب دوراً كبيراً في مسيرة الإنسان الحياتية، بالإضافة إلى ذلك، فإن للنفس قوى أخرى تحاول بها تحقيق التوازن وخفض التوتر الناتج عن عدم إشباع الإنسان لحاجة من حاجاته أو دافع من دوافعه.

وقد تناول علماء النفس بعض هذه القوى فيما يسمي بميكانزمات الدفاع أو الحيل العقلية، وعبر عنها علماء التحليل النفسي بأنها تشكل أنماطاً سلوكية لدفاع الأنا عن نفسها فى سبيل إعادة التوازن للشخصية، حين يختل هذا التوازن مما يقود الإنسان إلى الإحباط والقلق والصراع، أو إلى اضطرابات نفسية متعددة، فيبعد عن حكمة الوسطية..

وكانت أهم خاصية لهذه الميكانزمات - كما تناولها أصحاب مدرسة التحليل النفسي - أنها تحدث على المستوي اللاشعورى، أى أن الإنسان لا يدرك السبب وراء السلوك المتسبب عن ميكانزم ما من هذه الميكانزمات أو الحيل العقلية.
ومن أهم هذه الحيل: الكبت Repression والنكوص Regression والتكوين العكسي Reaction formation والإسقاط Projection والتقمص أو التوحد Identification والتبرير Rationalization والإعلاء Sublimation.*

* لمزيد من التفصيل راجع كتاب نظرية الركائز الأربعة للبناء النفسي (فهم سلوك الإنسان في ظلال الفرقان) دار صفاء ....

وفى مجالنا الحالى، لا نستطيع أن ننكر وجود هذه الدفاعات التى بها تدافع النفس وتجاهد فى سبيل إعادة التوازن إلى الذات، بل يمكن تشبيه هذه الميكانزمات بالمناعة الطبيعية في الجسم البشري، فكما أن هناك مقاومة طبيعية على مستوى ما فى جسم الإنسان تقوم بها أجهزة المناعة الحيوية حتى تقي الجسم من الميكرۏبات والجراثيم، فإن النفس لديها مقاومة طبيعية نفسية مضادة لاختلال التوازن النفسي الذى يتعرض له الإنسان فى حياته اليومية، لهذا نفضل أن نطلق على هذه الميكانزمات أساليب المقاومة النفسية، أو أساليب المناعة النفسية.

ولدينا بعض الأمور التى يجب أن ننوه بها قبل استعراض هذه الأساليب:

(أ) إذا كان هناك بعض الأساليب التى تتخذها النفس دفاعاً عن التوازن لا شعورية بلغة التحليل النفسي، فهناك وسائل أخرى شعورية، بل يستمتع الإنسان بإدراكها، وهي أساليب تنتمى إلى الجانب الروحي فى الإنسان مثل: كظم الغيظ، والصبر، والتوبة كعلاج، بالإضافة إلى الإعلاء.

(ب) إن هذه الأساليب التى تنتمى إلى القوة الروحية فى دفاع النفس عن توازنها ليست بحيَّل، بل هى مظاهر وظيفية للقوة الروحية فى الإنسان لإحداث التوازن، وهي علاج للضعف فى النفس ليعتدل السلوك ويتغلب الإنسان على إغراءات الحياة ونوازع الجانب المادي فيه؛ ومن ثم اتخاذ الوسطية سبيلاً..

(ج) إن الإفراط فى هذه الأساليب العلاجية ليس مرضاً، لكن الإفراط فى الحيل أو الأساليب اللاإدراكية يُعد مرضاً أو عرضاً للمرض.

وفى ضوء هذه الاعتبارات. نرى أساليب المقاومة النفسية ممثلة فى نوعين: النوع الأول يتضمن الأساليب العفوية غير المدركة من جانب الإنسان، والتى حين يبالغ فيها تؤدى به إلى مزيد من الاضطرابات، وتكرار استخدامها دلالة على المرض أو عرض لمرض نفسى، لهذا يمكن أن نطلق عليها أساليب سلبية مثل "الإسقاط والكبت والنكوص والتقمص والتبرير ..."

أما النوع الثانى فيمثل أساليب روحية فى مجاهدة النفس، والتى فى اتباعها على المستوى البسيط أو المرتفع يؤدى إلى صحة الإنسان النفسية، ومن ثم نطلق

عليها أساليب موجبة، ذلك مثل: " الإعلاء (السمو) - كظم الغيظ - الصبر والتوبة (كعلاج) ... وسوف نتناول هذه الأساليب التى يتبعها الإنسان السوى بشيء من التفصيل، فهي الأساليب النفسية التى تساهم فى اتخاذ الإنسان لمنهج الوسطية ...

١. الإعلاء:

لقد ساق علماء النفس هذا الأسلوب ضمن الأساليب التى سبق استعراضها، فرغم أنه يمكن أن يحدث تلقائياً، إلا أنه إيجابي على النحو الذى لا يضر بالإنسان حين الإفراط فيه، فضلاً عن أن تكرار استخدامه يدل على غلبة القوة الروحية فى الإنسان، ومجاهدة للنفس فى سبيل علوّ شأنها، والوصول إلى الطمأنينة.

فيرى علماء النفس أنه حين يصعب على الإنسان التعبير عن مكبوتاته أو الحاجات المراد تحقيقها فإنه يلجأ لا شعورياً إلى السمو أو الإعلاء بهذه المكبوتات أو تلك الحاجات ويُفرغها فى سلوك يتوافق مع قيم المجتمع أو الوسط الاجتماعي الذى يعيش فيه.

ويعتقد فرويد أن الدوافع الجنسية فى الإنسان يتم التسامي بها عن طريق مناشط فنية أو جمالية، وبذلك تتحول الطاقة فى شكلها البدائي القبيح إلى ميدان آخر أكثر قبولاً.

وعموماً فإن نظرية التحليل النفسي التى يتزعمها "فرويد" ترى فى الإعلاء إطلاقاً لسراح الطاقة الليبيدية (الجنسية) وتصريفاتها فى مجالات متسعة، وإذا كان هذا يمثل نظرة التحليلين للإعلاء، فإننا نراه وفقاً لعقيدة القرآن الكريم أحد وسائل مجاهدة النفس، وهى مجاهدة قائمة على أساس من القوة الروحية فى الإنسان وسبيلها ليس دالاً على مرض، بل يصل بالإنسان إلى إنسانيته، فيحدث التوازن المطلوب بين النزعة المادية من حيث لا تطغى وبين النزعة الروحية التى ترتبط بتقوى الله والطمع فى ثوابه.

وبهذا المعني لا يصبح الإعلاء أو السمو لا شعورياً بل يدركه الإنسان ويستمتع بإدراكه، فيعيش شعوراً روحانياً بتفضيل الفضيلة على غيرها من السلوكيات التى تفقده ذاته.

وتوجيهات القرآن الكريم للإنسان تنصب على مجاهدته لنفسه حتى يصل إلى استقرار الإيمان والوصول إلى التوازن فى إشباع حاجاته، أما إذا صعبت المسألة على الإنسان فميله إلى الإعلاء والسمو أطهر للنفس.

فنزعة الإنسان للإيثار بدلاً من البخل والشح والتراخي عن مساعدة الآخرين يُعد علاجاً للنفس، ويُذكر أن دافع الإيثار مُركب من التعاطف والحاسة الأخلاقية بل يتفاضل منها ويسمو بها.

يقول تعالي:

"... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ" (الحشر: ٩)

" فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ" (التغابن: ١٦)

ولمعرفة الله سبحانه وتعالى بميل الإنسان إلى الشهوات من النساء، فقد قال تعالي موجهاً الإنسان إلى السمو والرقى فى إشباع هذا الدافع:

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الروم: ٢١)

حتى إذا لم يجد الإنسان من المال أو الوسيلة ما يستطيع به النكاح فليصل بدافعه هذا إلى السمو والإعلاء بالعفة التى تقوى الإرادة وتُطهر النفس من أهوائها.

يقول تعالي:

" وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ..."(النور: ٣٣)

وفى توجيه عام يلائم فطرة الإنسان التى تقيم له حياته الطاهرة، وتزوده بالوقاية قبل أن يقع فى الخطيئة ...

يقول تعالي:

"قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا..." (النور: ٣٠، ٣١)

الإعلاء إذاً طُهرٌ للنفس، ومجاهدة لها فى سبيل تقوى الله والعمل الصالح واستقامة الفطرة، واتخاذ الوسطية سبيلاً فى إشباع الحاجات الإنسانية، كما أوضحنا ذلك سلفاً ...

٢. كظم الغيظ

يعتبر الكبت أسلوباً من الأساليب التي تتبعها الأنا فى الدفاع عن نفسها - كما يري ذلك أصحاب التحليل النفسى - ومن ثم فإن الكبت يتم على المستوى اللاشعورى، إذ يحاول به الإنسان أن يتخلص من رغبة أو شهوة أو شعور مرفوض من الأنا، أو لا يتلائم مع قيم المجتمع، وبذلك تطرد من مجال وعي الإنسان وشعوره، وشيئاً فشيئاً يتعامل الإنسان مع الحياة وكأن هذه الرغبات أو المشاعر ليس لها وجود، فقد تم خزنها فى اللاشعور.

لذا فإن الكبت وسيلة تنبع من خوف داخلى فى الإنسان، حيث تهدد هذه الرغبات أو المشاعر أو الشهوات بالخروج أو التعبير عن نفسها فى الواقع، فى الوقت الذى ترفض الأنا ظهورها.

وقد أردنا بذلك التوضيح لميكانزم الكبت أن نحدد موضع كظم الغيظ منه، فإذا اعتبرنا كظم الغيظ كبتاً أو قمعاً فهو كبت إيجابى وأسلوب يدل على نضج الإنسان، أما الكبت السلبى فلا يدل على وصول الإنسان لمرحلة من النضج التى بها يستطيع مواجهة مشاعره ورغباته، ويكون على وعى بماهيتها وتأثيرها على النحو الملائم.

يمكن القول إذاً أن كظم الغيظ وسيلة إيجابية سامية من وسائل النفس فى الدفاع عن ذاتها واتزانها، ولا يشير إلى حالة مرضية كتلك التى يكون عليها الإنسان الكبات، بالمعنى الذي أوردناه من وجهة نظر التحليل النفسى، بل فى كظم

الغيظ نضج انفعالى للإنسان، واستقرار إيمانى، وعقلانية فى التعامل مع مواقف الحياة المختلفة.

وكظم الغيظ هو سبيل النفس المطمئنة، حيث لا تتأثر بألوان الأذى والعدوان، فلا تنزع للانتقام أو كبت مشاعر وإضمار عدوان، بل تحيل هذا كله إلى عفو وتسامح، فهو كظم المؤمنين والعافين الذين يتصفون بالتقوى والإحسان.

يقول تعالي:

"فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ" (الحجرات: ٨٥)

"فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا" (البقرة: ١٠٩)

"وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنسَوْا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ" (البقرة: ٢٣٧)

من هنا يكون كظم الغيظ دفاعاً واعياً ناضجاً للنفس عن التوازن داخلها، ويتم ذلك بتحويل طاقة العداوة والبغضاء إلى صفح وتسامح، وفى ذلك تلعب الإرادة في النفس دورها، وتقود الإنسان إلى الوسطية كمنهج سلوكي....

وسبيل النفس فى تحويل طاقة البغض والعداوة إلى طاقة حب وصفح وتسامح هو مبادرتها بالخير والدفع والإحسان للطرف الآخر.

يقول تعالي:

"وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" (فصلت: ٣٤)

وقد يقترن باتخاذ كظم الغيظ سبيلاً نوع من الحزن، فها هو يعقوب عليه السلام يحزن ويكظم غيظه على فقد ابنه يوسف عليه السلام حتى أصبح حرضاً أى مشرفاً على الهلاك.

يقول تعالي:

"وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ"

(يوسف: ٨٤- ٨٥)

لكنه عليه السلام يقرر بأن شكواه إنما هى لله، وهذا دليل الثقة بالخالق، فحزنه ليس يأساً أو قنوطاً.

يقول تعالي:

" قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ"

(يوسف: ٨٦)

والحزن المصاحب لكظم الغيظ عند المؤمن ليس حزناً على متاع الدنيا، فلقد ذكر القرآن الكريم معنى آخر للحزن ينصرف في مقصده إلى أهل الدنيا ويستهدف مرضى القلوب.

يقول تعالي:

"أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ" (محمد: ٢٩)

بل أن حزن المؤمن هو حزن فى الله وحزن من أجل قيمة وعقيدة، فهذا هو سيدنا أبو بكر رضى الله عنه يحزن كثمرة إخلاصه لدينه ولرسول الله ﷺ وحين رأى الرسول صلوات الله وسلامه عليه الحزن فى عينى أبى بكر أراد أن يطمئنه.

يقول تعالي:

"... لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا..." (التوبة: ٤٠)

وتأتى السكينة والأمن على قلب الصديق أبى بكر ...

يقول تعالى:

"... فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ..." (التوبة: ٤٠)

وإذا اعتبرنا أن كظم الغيظ درجة عالية من درجات الصمت، أو أن الصمت مظهر لكظم الغيظ، فالصمت الإيجابى بُعد للنفس عن شهوة الكلام، ووقاية للإنسان من النميمة والغيبة، وقد ورد فى القرآن الكريم الإشارة إلى الصمت لحكمة وغاية.

يقول تعالي:

"قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً" (مريم: ١٠)

وذلك هو صمت الحكماء، وصمت الأنبياء.

٣.الصبر:

يشير معنى الصبر إلى تحمل الإنسان للمصائب والفاجعات كاختبارات من الله سبحانه وتعالى، فلا ييأس الإنسان ولا يصل إلى القنوط، واثقاً في رحمة الله، ويثق في أن بعد العسر يسراً.

وإذا كان الكبت لدى مدرسة التحليل النفسي يعني إزاحة الإنسان لما هو مؤلم من منطقة الشعور أو الوعي إلى منطقة اللاشعور أو اللاوعي، فإن الصبر ليس كبتاً، ذلك لأنه يتم على مستوى الشعور والعقل، ويقوم به العقل بنزعة روحية تصل بالإنسان إلى التوازن.

وإذا كان كظم الغيظ هو قمة في الصبر فإنه يعني عدم التعبير عن انفعالات الإنسان عدواناً وانتقاماً أو كراهية، بل سموا بهذه الانفعالات صفحاً وتسامحاً وإحساناً، أما الصبر فمجاهدة للنفس حتى لا تستسلم للجزع أو تزل إلى هوي، بل أن الصابر يرى غايته في تحقيق السمو بحزنه ويزيده هذا إيماناً وثقة في نفسه.

يقول تعالي:

"وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ..." (النحل: ١٢٦)

"وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" (فصلت: ٣٥)

والصبر يقوى العزيمة، ويبعد الإنسان عن الخوف، ويصقل الشخصية، فيصبح الإنسان قوياً مع الله وبالله.

يقول تعالي:

" إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا" (الأنفال: ٦٥)

"وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ" (البقرة: ١٧٧)

" إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (يوسف: ٩٠)

لذا يوصينا الحق جل وعلا بالصبر لما له من فوائد كثيرة:

يقول تعالي:

"وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" (العصر: ٣)

"وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ" (البلد: ١٧)

"فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً" (المعارج: ٥-٧)

والصبر بكل هذه المعانى ليس خضوعاً أو استكانة أو استسلاماً أو انسحاباً، كما يمكن أن يُقال على كل من الكبت والنكوص بالمعنى الذى تسوقه مدرسة التحليل النفسي، بل فى الصبر مصابرة وإصرار على تحقيق الإيجابية وبلوغ الغاية النبيلة بالطرق السوية التى لا تسبب اضطراباً أو ندماً، ففى الصبر تأن وروية لا اندفاع وهمجية، وفي الصبر تحقيق لطريق الوسطية.

وإذا كانت العبادات التى فرضت فى القرآن الكريم وهى الصلاة والصوم والزكاة والحج تمثل غاية فى حد ذاتها، فإن الإعلاء وكظم الغيظ والصبر وسائل لتطهير النفس وتقوية الإرادة والسمو بنزعات النفس الشريرة إلى ما يتفق مع منزلة الإنسان وكرامته.

يقول تعالي:

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات: ٥٦)

وقد أشار القرآن الكريم إلى الصبر مرتين مقترناً بالصلاة.

يقول تعالي:

"وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ" (البقرة: ٤٥)

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"

(البقرة: ١٥٣)

فغض عن المكروه طرفك واجتنب أذى الجار واستمسك بحبل المحامد

٤. العلاج بالتوبة

التوبة علاج ناجح لشعور الإنسان بالذنب والقلق والندم، فإذا تراكمت هذه الإحساسات والمشاعر لدى إنسان أدت به إلى اضطرابات نفسية يتسبب عنها اختلال مهم فى توازنه النفسى ومن ثم سلوكه اليومى، وهنا قد تلعب نزعته إلى

الإثابة والبعد عن العقاب دورها، فيعود إلى الطريق الذى يتفق مع إنسانيته وتكون توبته طريقاً للعلاج.

فإذا أخلص الإنسان فى التوبة قبلها منه ربه، وغفر له ذنوبه وزاده استبصاراً بأموره، وأصبح فى الوضع الذى يتقبل فيه ذاته، فلقد أصبح مع الله وفى طريق الحق.

يقول تعالي:

" وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا" (التوبة: ١١٨)

" إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً" (النساء: ١٧)

" قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (الزمر: ٥٣)

" وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" (الأعراف: ١٥٣)

"... أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (الأنعام: ٥٤)

" وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى" (طه: ٨٢)

وفى التوبة إعادة لتشكيل الشخصية فى الإنسان:

- التوبة تفتح أمام الإنسان الأمل فى تصفية حسابه مع ربه، بعد أن أرهقه عبء الذنوب والآثام فيجعله ذلك يشعر بالراحة النفسية مصحوبة بنظرة مختلفة للحياة يسود فيها التفاؤل بعد الخوف والتشاؤم.
- تؤدى التوبة بالإنسان إلى احترام ذاته، ويقوي ذلك فى نفسه إحساساً بالذات ليتقبلها ويسير فى طريق تأكيدها.
- تفتح التوبة أمام الإنسان مجالات أرحب للنجاح بعد أن زال الخوف المرتبط بأفعال غير سوية، سببت عوائق أمام نجاحه فى مجالات حياته المختلفة.

من هذا نري أن التوبة طريق للعلاج النفسي للإنسان، فبالتوبة يعُاد تشكيل الشخصية، ويستقيم البناء النفسي للإنسان، والتوبة سبيل الإنسان إلى الاطمئنان والشعور بالأمن، واستقامة الفطرة، ومن ثم اتخاذ سبيل الوسطية..

أقبل على صلواتك الخمس　　كم من مصبح عساه لا يمسي

وإستقبل اليوم الجديد بتوبة　　تمحو ذنوب صحيفة الأمس

رابعاً: الوسطية والنضج الانفعالي

قلنا إن التوازن فى البناء النفسي للإنسان يقوم على أساس لا إفراط في إشباع الإنسان لحاجاته ودوافعه ولا تفريط فى هذه الإشباعات بمعنى الزهد الذى يبعده عن إنسانيته، وأيضاً لا شح ولا تبذير، فالشح رزيلة تؤدى بالإنسان إلى البعد عن الجماعة التى ينتمى إليها، وكذلك التبذير، فهو خاصية من خصائص الشيطان، وهذا التوازن هو سبيل النفس فى مجاهدتها نحو المعيشة على الأرض والتطلع الروحى لخالقها.

وبالنسبة للانفعالات، يكون من غير المفيد أن يصل فيها الإنسان إلى حد المغالاة أو الشدة، ولا يستحب أيضاً أن يكون فى الوضع الذى يوصف فيه بالجمود أو التبلد الإنفعالى، وهذه ممارسة واضحة للوسطية فى الانفعالات ...

يقول تعالي:

" لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور"　　(الحديد: ٢٣)

والآية فيها القاعدة الإيمانية، فالحزن على ما فات ليس مطلوباً وكذلك الفرح بما هو آت، والمطلوب اعتدال انفعالي مقترن بشكر الله على نعمته ..

يقول تعالى:

" وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ"　　(الضحى: ١١)

وسيطرة الإنسان على انفعالاته ودوافعه أو التحكم فيها يدل على النضج، إذ هو فى الوضع المتمكن منها والذى يستطيع أن يتحكم فى إرجائها أو إشباعها فلا تصل إلى التطرف، لذا لا يصل معه الحال إلى إلحاح الدافع، فهو قادر على إرجائه على أن يحين الوقت والمكان المناسبين.

إن السيطرة على الانفعال يدل على أن الإنسان فى حالة من السلام النفسى مع ذاته، والإنسان من هذا النوع يستطيع بسهولة أن يُحيل العداوة والغضب إلى صفح وتسامح، ويُحيل الاندفاع إلى صبر ومثابرة فى إصلاح الغير.

والإنسان الذى يشعر بالحرية هو الإنسان المرتبط بربه، فيتحرر - كما قلنا سابقاً - من سيطرة العباد وسيطرة المادة فتقوى إرادته، وينصر الحق فى تفاعله مع الناس، ويتحمل النقد وعواقب الفشل، ويتنافس مع الآخرين في منافسة شريفة بعيداً عن الحقد والحسد.

وهناك بعض الاعتبارات السلوكية والتربوية التي تساعد الإنسان فى الاعتدال فى انفعالاته أو السيطرة عليها ومن ثم تساهم فى اتخاذ منهج الوسطية، ومنها:

١. أحياناً يتطرف الإنسان فى انفعالاته نتيجة لقصور فى المعلومات أو إدراك لحقيقة الموقف، وهنا وجب على الإنسان أن يبتعد عن الظن والتخمين، ويقيم حكمه على أساس من معلومات صحيحة يطمئن إلى مصادرها.

يقول تعالى:

" وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً" (الإسراء:٣٦)

وحين تتشعب الآراء فى المواقف، وتتعدد السبل يجب على الإنسان أن يختار أقربها إلى السكينة والاطمئنان النفسي، ثم يتوكل على الله مؤمناً بقدره.

يقول تعالى:

" قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا..." (التوبة: ٥١)

"مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (الحديد: ٢٢)

٢. إذا واظب الإنسان على فعل الخيرات وتمسك بها وبادر بالمعروف، طرد من قلبه الوساوس والخواطر الشيطانية، فمن الصعب على الإنسان أن تستولى عليه نزعتان متضادتان فى آن واحد.

يقول تعالي:

" مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ..." (الأحزاب: ٤)

وكانت الآية الكريمة رداً على من قال من الكفار إن له قلبين يعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد عليه أفضل الصلاة وأجل التسليم.

٣. يجب على الإنسان أن يجد لانفعالاته مخرجاً سوياً، أو على الأقل غير ضار، فلا يحاول أن يكرر قمع انفعالاته لتصل به إلى الضرر، وهنا اتفاق بين المتخصصين فى علم النفس على أن قمع الانفعالات المستمر له انعكاسات مهمة سالبة على صحة الإنسان، والإصابة بالأمراض النفسجسمية كأمراض القلب والقرحة المعوية، وبعض أمراض الجلد، والصداع النصفى، إلى آخر هذه الأمراض التى تدل على أن الإنسان فى حالة متقدمة من الإحساس بالضغط (أو الانعصاب) النفسى. وينصح المتخصصون بالتعبير عن الانفعالات ولو بسبل بسيطة بين الإنسان ونفسه، مثل البكاء، أثبتت الدراسات أن البكاء يبدل من كيميائية الجسم على النحو المرغوب، ويسد الطريق على ردود الأفعال الفسيولوجية السالبة، لكن علينا أن نعرف متى وأين وكيف نعبر عن انفعالاتنا وإلى أى حد نعبر عنها؟.

٤. يجب ألا يسمح الإنسان لعقله بالتجمد عند أفكار نمطية بالية غير متجددة، فتكون هذه الأفكار المنطلق لانفعالاته وعواطفه ومن ثم سلوكه، أيضاً، يجب ألا يقف الإنسان عند محطة فشل فى حياته يبكى فيها حظه، بل يجب أن يستفيد من هذا الفشل، ويفكر فيما يجب أن يتخذه من خطوات فى سبيل نجاح حياته وإعادة التوازن بثقة إلى نفسه.

٥. يجب أن يتجاوز الإنسان لأخيه الإنسان عن أخطائه وهفواته، سواء كانت بقصد أو بدون قصد، ويُغلب السماحة على العدوان والانتقام، فالله تعالي يتجاوز للإنسان عن اللمم ويصفح عنه.

يقول تعالي:

"الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ.." (النجم: ٣٢)

٦. يجب أن يؤمن الإنسان بأنه مهما اشتدت الأمور ضراوة، وتأزمت المواقف، وأغلقت السبل، فهناك بعد العسر يسر وبعد الضيق فرج، ولن يكون هناك مصيبة فى أنفسنا أو فى الأرض إلا وهى فى كتاب، وجدير بالإنسان أن يطمئن لهذه الحقيقة، فالله غالب على أمره.

يقول تعالي:

"وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" (يوسف: ٢١)

وبهذا ندع الأمور تسير كما أرادها الله.

يقول تعالي:

"مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (الحديد: ٢٢)

٧. يواجه الإنسان فى حياته عديداً من بنى الإنسان الذين لا يقولون الحق، بل يصل بهم الأمر إلى إخفاء الايجابيات وإبراز نواقص الناش، وهؤلاء هم الحاقدون ذوى النفوس الضعيفة، يقول رب العزة فى أمثالهم:

"الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (البقرة: ١٤٦)

إن فريقاً يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حق المعرفة ولكنهم ينكرون ويكتمون الحق، فلا يجب على الإنسان أن يبحث عن سبل الانتقام من هؤلاء وأن يضيع وقته وجهده وحياته فى هذا السبيل، فسوف تتعطل مسيرة نجاحه إذا اتجه هذا الاتجاه، وبهذا يكونون هم الأكثر ألماً، فبئسما اتخذوا من طريق.

ولا ينسى الإنسان أنه كلما زاد نجاحه زاد أعدائه وزاد نقد الآخرين له، فهذا هو الطريق الأسهل للفاشلين، فبدلاً من المنافسة الشريفة هم يفضلون هذا

الطريق، الذى يدل على ضعف إمكاناتهم وقلة حيلتهم، فيحاولون إبعاد النعمة والفضل الذى أعطاه الله للإنسان والإساءة إليه.

يقول تعالي:

" أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ" (النساء: ٥٤)

وهنا وجب على الإنسان أن يبتعد عن هؤلاء أو أن يصبر عليهم، ويشكر دائماً فضل الله عليه، أن جعله في هذا المركز وهذه المكانة..

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لى ولهم ما بى وما بهم ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

الفصل الرابع

مُعوِّقات نفسية
في طريق الأخذ بالوسطية

- الإدراك المشوَّه والأسلوب المعرفي..
- نمط التفكير غير الموضوعي.
- الاتجاهات النفسية السلبية.
- نمط الشخصية التسلطية.

إذا كانت البنية النفسية في الإنسان – كما أسلفنا – فيها الأصول الفطرية التي تنزع بهذا الإنسان إلى التوازن بين إشباع المتطلبات المادية والإشباع الروحي، بما ينعكس ايجابياً على سلوكيات الإنسان وأحكامه آخذاً الوسطية طريقاً ومنهجاً، فإن داخل البنية النفسية ذاتها من الإمكانات النفسية ما ينمو عبر تنشئة اجتماعية غير سوية وتعليم غير فعال، فيؤدي بالإنسان إلى أن ينأى بعيداً عن التوازن والاعتدال ومن ثم يكون سلوكه تطرفي وغير مسئول.

يقول تعالى:

"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" (الشمس، ٧: ١٠)

ومن هذه المتغيرات النفسية، التي ربما تنحرف بفعل التنشئة الاجتماعية ونظم التعليم فتأتي بسلوك متطرف وتنأي بالإنسان بعيداً عن الاعتدال، ما يلي:

- الإدراك عندما يضطرب أو يشوَّه عند الإنسان، فيري الأمور أو الموضوعات على خلاف ما هي عليه، ويتحدد هذا الإدراك ويتمايز فيما يطلق عليه الأسلوب المعرفي (الإدراكي).
- تفكير الإنسان عندما تسيطر عليه النمطية وعدم الموضوعية، فلا يستند إلى منطق أو معايير واضحة..
- الاتجاهات النفسية السلبية، فالتنشئة الاجتماعية ربما تنمي لدي الإنسان اتجاهات انفعالية تطرفية حادة تضر بتفكير الإنسان، وتميل به نحو الأهواء، وتنحرف به بعيداً عن الأجود أو الأفضل أو الأوسط في إحكامه وسلوكياته..
- الشخصية التسلطية، وهي تصف إنساناً يجمع في ذاته كل المُعوِّقات السابقة، فربما يختص إنسان ما بتفكير غير موضوعي لنقص معلومات ما، وربما يتصف إنسان آخر بسيطرة بعض الاتجاهات السلبية عليه فتنزع به إلى تطرف مؤقت، وربما يتصف إنسان آخر بأن إدراكه للموقف كان غير واضح فصدر عنه سلوك غير سوي أو غير اعتدالي.. أما حينما تتجمع هذه المُعوِّقات جميعاً في شخصية واحدة، وتصبح من سماتها الدائمة، فإن

هذه الشخصية لا تكون إلا تسلطية في سلوكها وتفاعلها مع مواقف الحياة.. وتلك الشخصية هي الأخطر، والمرشحة دائماً للتطرف، بل هي مرشحة لإعداد جيل من المتطرفين، خاصة إذا كان لها علاقة بالاتصال الجماهيري، في مجال الدعوة أو التعليم أو الإعلام

إن الفائدة المرجوة من عرض هذه المعوقات في الفصل الحالي، ما يلي:

١. أن نوجه النظر إليها باعتبارها محكات مهمة تمثل ضوءً أحمر في اختيار رجال الاتصال الجماهيري.
٢. أن تتخذ كموجهات إرشادية وتدريبية لإعداد المتخصصين في مخاطبة الجماهير والاتصال بهم ، وذلك في مجالات الحياة المختلفة.

أولاً: الإدراك المشوَّه والأسلوب المعرفي

يعتبر الإدراك Perception وظيفة عقلية محورية، تنتج عن التكامل الوظيفي للعمليات العقلية، من أجل الوصول إلى تفسير محدد للمثير وحتى تحدث الاستجابة..

الإدراك إذن، عملية عقلية يتم بمقتضاها تنظيم المثيرات وتشكيلها وتصنيفها وترميزها، لإضفاء معني محدد عليها، حتي يتم التعرف عليها، ومن ثم التعامل معها على النحو الملائم (الاستجابة).

معني ذلك أن الإدراك يعطي صورة ما للحدث أو الموقف أو المثير داخل النفس فتحدث الاستجابة..

وعندما نعود إلي قرآننا الكريم فقد نجد للإدراك معناً متضمناً في مفهوم البصيرة. يقول تعالي:

"بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ.." (القيامة: ١٤)

وبصير بالشيء أي علم به ، فهو بصير

ويقول تعالي:

" قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي" (يوسف: ١٠٨)

فسيدي رسول الله صلي الله عليه وسلم يدعوا الناس للإسلام على علم ومعرفة وحجة قاطعة، وليس على وجه التقليد أو بدون علم.

ومن جانب آخر، نري آيات الله الكريمات تشير إلى أنه ليس كل مُبصر ببصير، أو ذو بصيرة وأن مكان البصيرة في القلب...

يقول تعالي:

" فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" (الحج: ٤٦)

" لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا "

(الأعراف: ١٧٩)

" وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ " (الأعراف: ١٩٨)

مما يدل على أن مجرد النظر لا يقود إلى التعرف على الشيء وإدراكه، بل لابد أن يتعدى ذلك إلى البصيرة...

يقول تعالى:

"قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ " (الأنعام: ١٠٤)

من هنا فإن تعبير "أبصر" بمعني فهم، فأدرك على النحو الموجب، أما (عمي) فتعني على العكس من ذلك ....

وللبصيرة، مدلول آخر، فقد تعني الفراسة وشدة المراس، وقوة الحنكة والقدرة على تخطي العقبات في الموقف، والنقل الموجب للخبرة، أو تجميع المدركات في رؤية جديدة..

وهذا يدل على أن البصيرة تعني الإدراك الموجب، أي الواضح والمطابق للموقف والذي يقود إلى حسن التفاعل مع الأمور في موضوعية ويسر ، أما إذا اضطرب الإدراك فإنه يقود إلى أحكام مشوّهة ، فإذا كانت أسباب هذا التشويه تعود إلى البيئة ومعلومات خاطئة ، فإن المشكلة تكون هينة وبسيطة ويمكن تداركها ، أما إذا كان التشويه أو الاضطراب لأسباب نفسية ذاتية، تضل فيهما

البصيرة، نتيجة لقلب غير سليم، وقلب ضبابي تسيطر عليه الأهـواء، ولا يسـتقيم مع الحقائق والمسلمات الصحيحة، فإن المشكلة تكون أعمـق وأعسـر، ذلـك لأن الناتج يتمثل في سلوك مضطرب، ومستمر في الاضـطراب، وأحكـام تطرفيـة، تطغى على الوسطية والاعتدال..

ولاشك أن هناك الكثير من المتغيرات النفسية التي تـؤثر علـى الإدراك ، مثل: الدوافع والانفعالات والعواطف والقيم التي نؤمن بها، بل شدة انتباهنا للموقف أو عناصره تؤثر على إدراكاتنا على النحو الموجب أو السالب. لكن عندما يكـون للإنسان بصيرة نقية تستقيم مع توجه مستقيم واستباق للخبرات، فإن الإنسان يمكن أن يعود إلى الإدراك الجيد للأمر، ليعود إلى الاعتدال أو الوسطية في إحكامه.

يقول تعالي:

" وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُـمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ " (الأعراف: ١٥٤)

هنا بدأ سيدنا موسي عليه السلام يسلك على نحو يتفق وفهمه الجديد للموقف.

ويتضح الإدراك المشوه نتيجة بصيرة غير سليمة حين يضرب لنا الله عـز وجل الأمثال في الآيات الكريمات:

يقول تعالي:

" أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ..." (فاطر: ٨)

" وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَـمْ يَجِـدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ " (النور: ٣٩)

ويتضح تأثير الإدراك أيضاً على سلوك الإنسان حين نوضح ونبين تمـايزه عند الإنسان فيما يطلق عليه علم النفس "الأساليب المعرفيـة Cognitive styles" ويطلق عليها الأساليب الإدراكية أحياناً، أي أنها تميز الفرد فـي الطريقـة التـي يستقبل بها المثير والطريقة التي يستجيب بها، بصورة أخري، تقول أن الأسـلوب المعرفي يحدد للإنسان تلقائياً الطريقة التي يستقبل بها المعلومـات أو المـدركات والطريقة التي يصدر بها المعلومات، أي أسلوب الإنسان في الإدراك.

فالأسلوب المعرفي يدل على شكل النشاط المعرفي وليس محتوي النشاط، فمثلاً، يدل الأسلوب المعرفي على طريقة التفكير، أو طريقة الإدراك، وليس فيما يفكر فيه الإنسان أو ما يدركه. ومن طبيعة الأسلوب المعرفي أنه أبعاد نفسية ثنائية القطب، ولكل قطب أهميته في ضوء ومتطلبات الموقف، لذلك فإن الأسلوب المعرفي يحدد طريقة توجه الإنسان إدراكياً للموقف..

فيمكن أن يدرك الإنسان الموقف مستقلاً عن عناصره أو يدرك الموقف معتمداً على عناصره والمحيط الذي يحدث فيه.. وينتج عن ذلك إدراك جيد أو إدراك غير جيد، ويؤثر ذلك سلباً أو إيجاباً على أحكام الإنسان..

أيضاً، يمكن أن يتحكم نوع من الأساليب يسمي أسلوب التروي في إنسان ما فلا يصدر أحكاماً إلا بعد تأمل وتدبر ليصل إلى أحكام أكثر عقلانية واعتدالاً.

لكن يمكن أن يتجكم في الإنسان طرف آخر للأسلوب المعرفي وهو الاندفاع – فلا يكون هناك مجال للتدبر أو التأمل، ولذلك يصدر أحكاماً في الموقف خاطئة، ذلك لتشوه الإدراك، فلا يري الأجود أو الأفضل أو الأحق ويبعد الإنسان عن الاعتدال أو الوسطية.

من هنا يمكننا القول على المستوي النظري، أن الإنسان الذي يميل إلى الوسطية منهجاً وسلوكاً، تميل أساليبه المعرفية الإدراكية إلى الآتي:

١. التروي وليس الاندفاع، ليساهم ذلك في التأني، ودراسة الموقف مثل إصدار الحكم، وغالباً ما يؤدى هذا الأسلوب بالإنسان إلى البعد عن التطرف ويقترب به من الاعتدال.
٢. الضبط المرن وليس الضبط المتزمت، فينعكس هذا الأسلوب فى أحكام وإدراكات مرنة فلا يميل الإنسان إلى التشدد أو التزمت، أو التعصب.
٣. التبسيط المعرفى فى الوصول إلى قراءة الموقف وإصدار القرار، وليس التعقيد المعرفي الذى قد يُعيق النظر إلى معطيات الموقف فيضل الإدراك ويقذف بالحكم والقرار إلى الطرفية أو التطرف وعدم الاعتدال.
٤. التسامح فى ضوء متطلبات الواقع، لكن دون أن يكون ذلك على حساب الثوابت، ودون التفريط أو التسامح فى حق أو عدل أو قيمة أو مبدأ ..

إن هذه الاستنتاجات الأربعة أسردها هنا على المستوى النظرى كافتراضات بحثية تتطلب دلائل تجريبية تقودنا إلى كشف العلاقة بين الأسلوب المعرفي والسلوك الوسطي للإنسان .. وعلى وجه التحديد فإن البحث فى هذه العلاقة قد يكشف لنا عن الأساليب المعرفية الإدراكية المميزة للإنسان الذى يتصف بالوسطية فى سلوكه وأحكامه ، ومن جهة أخرى يكشف لنا عن الأساليب المعرفية التى تميز الإنسان المتطرف ..

وهناك جانب آخر، لا أريد أن أترك هذا الجزء دون الإشارة إليه، وهو أن هناك بحوثاً كثيرة قد أُثبتت إمكانية تعديل الأسلوب الإدراكي عند الإنسان من قطب إلى قطب آخر أفضل، مما يعطى مؤشراً مهماً على إمكانية تنمية الوسطية وزيادة مستواها عن طريق تعديل الأسلوب المعرفى لدي الإنسان، أي يمكن زيادة التوجه لديه إلى الأخذ بالوسطية فى سلوكه وأحكامه.

ولكن يحتاج هذا الافتراض أيضاً إلى دلائل تجريبية لبحوث تخوض هذا المجال.

ثانياً: نمط التفكير غير الموضوعي

للسلوك الإنسانى صور وخصائص مختلفة، فمنه السلوك البسيط، ومنه السلوك المُركب، أيضاً يوجد السلوك السوى ومن ثم السلوك الشاذ (غير السوى)، بل يوجد السلوك الذى يمكن ملاحظته، والسلوك الذى لا يلاحظ أو يُشاهد، وذلك الأخير هو المتمثل فى نشاطات الإنسان المعرفية أو العقلية.

وجوهر النشاط المعرفي للإنسان يتمثل فى اكتسابه لنماذج معرفية تفسر له الواقع المحيط به، وتتكون هذه النماذج عبر خبرة حسية وصور تجريدية تتعلق بوعي الإنسان وآلياته.

وهذه النماذج المعرفية تشكل مراجع مهمة للإنسان، تلك التى يستدعيها فى الوقت المناسب حين يكون بصدد تفسير موقف ما، أو معلومات يصعب عليه تفسيرها والتعامل معها حسياً، أو بطريقة مباشرة.

وتعتبر العمليات العقلية مثل: التفكير والتـذكر والإدراك وغيرهـا صـور مختلفة للنشاط المعرفي للإنسان، في الوقت الذى تمثل فيه هذه العمليـات العقليـة محاور البناء العقلى المعرفي لديه.

ومن خصائص البناء العقلى المعرفى فى الإنسان، أنه ينـزع دائمـاً إلـى التكامل الوظيفى للسير فى طريق التوازن، فالنمـاذج المعرفيـة تتميـز بـالتغيير والتجديد فى الوقت الذى تظل فيه محتفظة بحالة من الثبات النسبى .. وكذلك فـإن العمليات العقلية تتفاعل بعضها مع البعض الآخـر، وتتـأثر إحـداها بـالأخرى، فالإنسان يستقبل المعلومات من البيئة المحيطة بواسطة حواسه، ويتفاعـل معهـا معرفياً حتى يتم إدراكها، وتُخزن هذه المعلومات ليتم تذكرها فى موقف مناسـب، معبرة عن خبرة الإنسان الماضية، كذلك فإن التفكيـر يعتمـد علـى المعلومـات المُدركة، أما التذكر للخبرة الماضية فيؤثر فى الإدراك، فى الوقت الذى يلعب فيـه دوراً مهماً فى التفكير ...

وهكذا ورغم كفاءة البناء العقلي للإنسان، فإنه يقف عاجزاً أمام كثيـر مـن المعرفة الكونية والغيبية، ووراء ذلك حكمة إلهية ورحمة منه سبحانه ، لذا وجـب على الإنسان أن يرضخ للمصدر الأصلي لهذه المعرفة، فيتلقى من الله جلت قدرته وحيه ورسالته مصدقاً لها ومطمئناً بها ..

والتفكير Thinking هو العملية العقلية التى يتم فيها ترميـز المعلومـات والاستثارات التي تستقبلها الحواس، ومن ثم تتكون الصـور الذهنيـة والأفكـار والمعانى، ليتم الاستدلال والتخيل وكشف العلاقات ، وقد يتم الوصول إلى الإبداع.

هذا وقد حلل "جون ديوى" خطوات التفكير، تلك التى أصبحت معروفة كمـنهج للبحث العلمى، فى الحال الذى يجب أن يتبعها الإنسان فى حكمه علـى المواقـف والأمور الحياتية ، كالآتى:

- الإحساس بالمشكلة، وتعنى تعرف الإنسان على وجود شيء يستدعى التأمل أو مشكلة تستدعى الحل.
- تحديد المشكلة وصياغتها، بمعنى جمع المعلومات عـن أبعادهـا لمعرفـة حدودها والنظر إليها من منظور أكثر موضوعية.

- وضع الفروض، أى اقتراح حلول متاحة للمشكلة.
- إثبات صحة الفروض، بمعنى الإجراءات التجريبية، أو جمع الأدلة لمعرفة أنسب الحلول للمشكلة.
- الوصول إلى النتائج وتعميمها، بمعنى الثبات على الحل المناسب ومحاولة استخدامه فى المواقف المتشابهة.

والمتأمل فى هذه الخطوات يرى أن وصول الإنسان إلى حل للمشكلة يعتمد على عمليتى الاستقراء Induction والاستنباط Deduction وهما عمليتان هامتان فى نشاط التفكير بصفة عامة، ويطلق عليهما الاستدلال Reasoning حيث التحقق من صحة الأحكام على أساس من الإدراك المباشر، ويقوم الاستدلال العقلى على الاستنباط حيث مبدأ أن ما يصدق على الكل يصدق على الجزء، ويسمى هذا بالتفكير الاستنباطي، أما حين يتم التوصل إلى نتيجة عامة من ملاحظة حالات جزئية، فهذا ما يطلق عليه بالتفكير الاستقرائي، وأعتقد أن هذه هي العمليات المعرفية التى تحدث لمن يتصدى للاجتهاد أو القياس كمنهج تشريعى من أجل إصدار أحكام أكثر موضوعية فى مجال الفتوى والفقه الإسلامى.

وليس بالضرورة أن يسير التفكير مقيداً وفق خطوات جامدةٍ صارمة، بل قد يقفز الإنسان فى تفكيره إلى خطوة أكثر تقدماً، أو إلى تفسير غير مألوف لموقف ما، ويكون نجاح الإنسان فى حل المشكلات مرتبطاً بخصائص معينة من أبرزها التفتح العقلى ودافع الاستطلاع القوى والرغبة المستمرة فى التعلم والدقة والأمانة العلمية والتحرر من الخرافات والانفعالات والعواطف الجامحة والنزعة للموضوعية وعدم الاندفاع فى الحكم وعدم إصدار القرارات إلا على أساس من الأدلة الكافية، ويمكن أن نجمل هذا كله فى لفظ البصيرة تلك التى تجمع الايجابيات فى قلبٍ سليم، قلب وعقل مهيئاً للأخذ بالوسطية..

وقد تعددت آيات الذكر الحكيم التى تشير إلى التفكير كوظيفة عقلية مرتبطة بنشاط الإنسان ورسالته على الأرض، فيدعوا رب العزة الإنسان إلى تأمل ذاته وفهمها وفهم آيات الله فى الكون وأخذ العبرة من قصص الأولين فذاك طريق فعال لمعرفة الله والإيمان به، عن علم ومعرفة.

يقول تعالى:

" أَولَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ" (الروم: ٨)

" كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ" (البقرة: ٢١٩)

" أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا" (سبأ: ٤٦)

" لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ" (يوسف: ١١١)

"لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ" (ص: ٢٩)

"وأولو الألباب" تعنى ذوى العقول المفكرة، فمن يعرف ليس كمن لا يعرف، والإنسان الذى يعلم هو من يفكر ويتدبر ويستطيع التمييز.

يقول تعالى:

" هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ" (الزمر: ٩)

ويعطى رب العزة سبحانه وتعالى معطيات التفكير ومداخل المعلومات كى يتدبرها الإنسان ويُعمل فيها عقله ..

يقول تعالي:

" فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ" (الطارق: ٥ - ٧)

" وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ" (الذاريات: ٢١)

بل إن القرآن الكريم قد أعطانا المثل الأعلى فى التفكير كأسلوب ومنهج، ذلك الذى تبدأ خطواته بالشك المنهجى، فليس هناك واقع مقدس، فالقدسية للحق والواقع الذي يثبت أحقيته وصلاحه (بعد التفكير المنطقى الفاحص)، وذلك هو المنهج الذى تهدينا إليه الآيات المباركات التاليات ..

يقول تعالي:

" أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (الملك: ٢٢)

" إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ" (الزخرف: ٢٣ - ٢٤)

" قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ" (سبأ: ٤٦)

وقبل أن يقطع الإنسان بشيء عليه أن يتقبل احتمال الصواب واحتمال الخطأ ، ثم يختار الحق والصالح أو الأجود أو الأفضل أو الأوسط.

يقول تعالى:

" وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (سبأ: ٢٤)

لكن يجب ألا ينطلق التفكير من مُسلمَات خاطئة فيقود إلى ضلال - وهذه صورة من هذا التفكير للوليد بن المغيرة المخزومى حين أراد أن يلصق بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سمة أو صفة تنتشر بين قريش فتؤدى إلى نفور الناس منه صلى الله عليه وسلم . فتناقش مع أصحاب السوء فى دار الندوة واقترحوا أن يلقبوا الرسول صلى الله علبه وسلم بلقب شاعر، ثم كاهن، ثم مجنون، ثم انتهوا إلى القول بأنه ساحر والتى وجدوها أنسب الصفات للانتشار (قاتلهم الله) فكان الرسول صلوات الله عليه وسلامه لا يلقى أحد منهم إلا وسمع منه لفظ "يا ساحر"، واشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت سورة المدثر وفيها الإشارة إلى هذه القصة.

يقول تعالي:

" إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ" (المدثر: ١٨ - ٢٤)

أما تعطيل التفكير ليتوقف الفهم الصحيح، كما يحدث لدى الكافرين، فنرى إشارات قرآنية كثيرة له ..

يقول تعالى:

" وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ..." (الأنعام: ٢٥)

" فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا" (النساء: ٧٨)

" وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ" (التوبة: ٨٧)

ولا يفوتنا أن نعرض لصورة مهمة من صور التفكير تنطوى على اتباع خطوات التفكير فى حل المشكلة التى عرضنا لها سلفاً، يقصها علينا القرآن الكريم

تلك التي تتمثل في السبيل الذي اتخذه سيدنا إبراهيم عليه السلام فى الوصول إلى معرفة الله، فلم تنسجم حياة إبراهيم عليه السلام مع عبادة الأصنام وأقر من أول وهلة ببطلانها، فهى من صنع الإنسان، وكيف يعبد الإنسان ما صنعته يداه ؟

يقول تعالى:

" قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ" (الصافات: ٩٥)

ثم إن هذه الأصنام لا تسمع ولا تعقل ولا تضر ولا تنفع، والإله الذى تحق عبادته هو واهب هذه النعم. فكيف يوصف بأنه لا يسمع ولا يعقل ولا يضر ولا ينفع؟

يقول تعالى:

" قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ " (الأنبياء: ٦٦)

وهذه الحقائق قد مثلت مُسلمَات انطلق منها إبراهيم عليه السلام فى تفكيره، قادته إلى البحث عن أدلة، وفى بحثه عن أدلة، كان قد وضع معايير يقيم في ضوءها هذه الأدلة، أو يحكم من خلالها على صحة الفروض أو عدم صحتها، فكان فرضه الأول، عندما جن عليه الليل ورأى كوكباً يتلألأ فى السماء المظلمة "أن هذا هو الإله" ولكنه تبين أن الكوكب يتصف بالتغير، فقد اختفى والإله يجب أن يكون ثابتاً لا يغيب، فاستبعد الفرض.

وانتقل إلى دراسة فرض آخر، فقد رأى القمر ساطعاً فى جوف الظلام، لكنه يغيب أيضاً فتناقض مع معيار الثبات للإله، من هنا استبعد هذا الفرض أيضاً.

وأنتقل إلى الفرض الثالث، حيث رأى الشمس ساطعة لكنها لا تغيب، فاستبعد الفرض الثالث.

ثم كان الفرض الرابع والأخير، الذى مؤداه أنه إذا كانت كل هذه المتغيرات فى الكون قابلة للتغير، فإن هناك المسبب لها جميعاً وهو يغير ولا يتغير، وهو موجود لا يغيب، فوصل إبراهيم عليه السلام إلى الحقيقة التى لم يجد لها أدلة تدحضها، إنه هو الإله الواحد الأحد فاطر السموات والأرض وهو على كل شيء قدير.

يقول تعالى:

" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ" (الأنعام: ٧٤- ٧٩)

ويُعلم رب العزة والجلال الإنسان كيفية السير وراء أدلة منطقية مشتقة من التجربة التى تقوم وفق منهج سليم غير منحرف أو متحيز، ليصل به إلى نتيجة منطقية يقينية، وبالطبع فإن التجربة خطوة هامة من خطوات التفكير العلمى الصحيح، والتى بها نصل إلى إثبات صحة الفرض أو عدم إثبات صحته، وقد اتضح ذلك فى الموقفين التاليين:

الأول: مع سيدنا إبراهيم عليه السلام، كما يتضح فى الآية القادمة:

يقول تعالى:

" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (البقرة: ٢٦٠)

بهذا بدأ إبراهيم عليه السلام التجربة من منطلق مُسلمة مؤداها "أن الله قادر على إحياء الموتى، لكن التجربة تعطينا الاطمئنان القلبى وخبرة البحث عن الأدلة.

أما الموقف الثانى: فيتضح من الآية القادمة.

يقول تعالى:

" أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: ٢٥٩)

والموقف فيه شخص (اختلفت التفاسير فى التعرف عليه) لم يسأل السؤال الذى سأله إنكاراً أو تعجباً، ولكنه أراد أن يشاهد بياناً عملياً لإحياء الله الموتى أو خلق الشيء من العدم، ذلك من منطلق إيمانه بأن الله قادر، وعندما تحقق له ذلك فى بيان عملى وتجربة ربانية معجزة، اطمأن قلبه، وأصبحت هذه التجربة عظة للناس على مدى الأزمان.

ونتائج التجربتين تقود الإنسان إلى التعميم فما ينطبق على الجزء ينطبق على الكل، فإحياء الطير يقود إلى يقين القدرة لله فى إحياء كل المخلوقات، وإحياء قرية (بما فيها من إنسان وجماد) يقود إلى اليقين على قدرة الله فى إحياء البشر جميعاً، ومن ثم اليقين فى البعث، وله المشيئة وإليه الحكم إنه عليم قدير.

ومن العوامل أو المتغيرات النفسية التى تؤثر فى تفكير الإنسان: الغفلة والتحيز الانفعالى أو العاطفى، أما الغفلة فمقصود بها تجاهل الإنسان للمصدر الصحيح للمعلومات. أو البعد عنه، ومن ثم فإن هذا النوع من المعلومات يضلل التفكير وينحرف به عن المنهج الصحيح وتكون النتيجة قد بنيت على باطل، والغفلة كانت سبب من الأسباب وما زالت وراء بعد الإنسان عن الحق، وهذا ما تحمله الآيات القرآنية الآتية.

يقول تعالى:

" ذَلِك بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ" (الأعراف: ١٤٦)

" يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ" (الأنبياء: ٩٧)

" أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ" (الأعراف: ١٧٩)

" أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ" (النحل: ١٠٨)

" فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ" (الفتح: ١٠)

فالتعرف على الحق يوجد فى آيات الله المبصرة حول الإنسان فى كل مكان وكل زمان. لكن البعض يتجاهلها وينكث بعهد الله.

كذلك فإن بعض انفعالات الإنسان وعواطفه يمكن أن تسد عليه الإدراك الصحيح ومن ثم التفكير المنطقى، فقد تلعب الانفعالات والعواطف دوراً كبيراً فى

تحيز الإنسان لرأى دون آخر، حتى ولو كان ذلك الرأى مخالفاً للحــق والعــدل، وبالتالى فإن التفكير يضل طريقه الصحيح وتكون النتيجة مخالفة لمنطق الأشياء .. وفى آيات الله المباركات ما يدل على هذا المضمون ...

يقول تعالى:

" أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ"

(الجاثية: ٢٣)

" أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ"

" إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُ

(النجم: ٢٣)

" إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ......" (غافر: ٥٦)

وبعد... لقد رأينا أن التفكير الموضوعى هو السبيل الوحيد للوصــول إلــى الطريق المستقيم، وفى الطريق المستقيم يكمن الاعتدال ومن ثم الأخذ بالوسطية فى التوجه السلوكى أو فى إصدار الأحكام .. ونخلص من ذلك إلــى أن الداعيــة، أو المعنى بمخاطبة الجماهير في أجهزة الإعلام أو فى مجال التعليم يجب أن يتصــف بالمرونة فى التفكير وعدم التعصب لأفكار معينة وأن يتحــرر مــن الانفعــالات والعواطف الجامحة وألا يندفع إلى قرارات وأحكام سريعة، ولا يصدر حكماً قبــل جمع الأدلة الكافية متحرياً الدقة فى سلامتها ... ومنطلقاً فى التفكير من مســلمات حقيقية، مقرراً لفروض واقعية لحل المشكلة أو الموقف، تأخــذ الفرصــة الكافيــة لدراستها والوصول إلى السبب الصحيح الذى يتعلق بوجود المشــكلة أو الموقــف المُشكِل.

ثالثاً: الاتجاهات النفسية السلبية

يمثل الاتجاه Attitude عند الإنسان توجهاً وجدانياً حاداً يسيطر على الإنسان ممثلاً في فكرة أو معتقد أو أيديولوجية تجاه شخص أو مؤسسة أو فئة بشرية، ويتميز بالثبات والطرفية ...

والاتجاه لا يكون عادة إزاء الحقائق الثابتة وإنما هو دائماً حول موضوعات جدلية، وعلى أساس الاتجاه النفسي الذي تكوّن لدى الإنسان فإنه يكون في حالة من التأهب والاستعداد والانفعال للاستجابة دون تردد إزاء موضوع الاتجاه وعلى النحو السلبي الحاد أو الايجابي الحاد.

فيمكن أن يكتسب الإنسان اتجاهاً عدائياً نحو المرأة - مثلاً - (اتجاه سالب) لذا نراه في كل مناسبة صغيرة أو كبيرة، مهنية أو اجتماعية يتجه سلوكه إلى عدم مناصراتها.. والعكس صحيح، بمعني أن الاتجاه نحو المرأة إذا كان موجباً فإن الإنسان يناصر المرأة بحدة للدرجة التي قد لا تتناسب مع الموقف!

وهكذا.. الاتجاه في حدته نحو الزنوج، أو الاتجاه نحو أمريكا.. مثلا...

لذلك. فإن الاتجاه سواء كان سلبياً حاداً أو موجباً حاداً، فهو يؤثر تأثيراً مباشراً في أحكام الإنسان ومواقفه؛ ذلك لأن الاستجابة تكون مُشَبعة بانفعال حاد لا يتيح دراسة الموقف على نحو ملائم.

فقد يؤدي سيطرة الاتجاه على إنسان ما إلى تبني السلوك العنصري، إذا كان اتجاه سالب نحو فئة بشرية بعينها، وقد يحجب الاتجاه في حدته كثير من المعلومات التي تقود إلى تفكير موضوعي، أو سلوك وسطي يحل المشكلة حلاً يتصف بالاعتدال والتوازن..

أيضا، فإن سيطرة الاتجاهات على الإنسان تضع العوائق أمام حُسن اتصال الفرد بالآخرين مما يعطل التفاهم.. فيزيد التناحر.. وتشتعل الفتن..

وخلاصة القول: أن سيطرة الاتجاهات النفسية تفرض على الإنسان أحكاماً غير موضوعية، وتعوق وصوله إلى التوازن والاعتدال ومن ثم عدم الأخذ بالوسطية.

وتزيد المشكلة تعقيداً عندما يكون الداعية أو الإنسان المعني بالاتصال الجماهيري على أي صورة، ممن تسيطر عليه مثل هذه الاتجاهات (سلبية/ إيجابية) فلا يستطيع أبداً أن يكون حيادياً في توجيهاته وأحكامه واجتهاداته الفقهية.. من جانب آخر.. يمكن القول أن الاتجاه النفسي يمكن تعديله بالإرشاد والتوجيه والتدريب حين نصل بالفرد إلى معرفة المعلومات الأولي التي هيأته وجدانياً إلى تبني هذا الاتجاه. فالاتجاه النفسي يتضمن مكونات ثلاثة، هي:

- المكون المعرفي: المعلومات التي اكتسبها الإنسان حول الموضوع..
- المكون الوجداني: ويعني التقبل والانفعال بالموضوع.
- المكون النزوعي: ويعني الأداء المترتب على الانفعال بالموضوع.

من هنا أقول، إن تغيير الاتجاه لابد أن يبدأ من المكون العقلي المعرفي، حيث المعلومات الأولي التي اكتسبها الإنسان عن الموضوع، فنقوم بإحلال معلومات جديدة محل المعلومات القديمة تتفق والسلوك المرغوب فيه الذي نود وصول الإنسان إليه..

إن هذه الآلية في تغيير الاتجاهات لابد أن يكتسب الدعاة مهاراتها، وكذلك المهتمون بالإعلام والمعلمون.. حيث يجب عليهم أن يتعرفوا على اتجاهات جمهورهم، والمعلومات الاحتمالية التي تكمن خلف هذه الاتجاهات، ثم يقومون بتوجيه وإرشاد لهذا الجمهور في سياق معلومات جديدة أكثر صدقاً وموضوعيةً، ويتم ذلك بأسلوب الإيحاء وليس بالطرق المباشرة...

رابعاً: الشخصية التسلطية

يعود مصطلح الشخصية Personality في الأصل إلى الكلمة اللاتينية القديمة Persona والتي تعني القناع، ذلك الذي كان يرتديه الممثل على خشبة المسرح، فيخفي وجهه ليظهر بمظهر خاص يصل إلى المتفرج، أو يقوم من خلاله بالتوحد مع شخصية ما، أو كائن معين، وقد استخدمت الكلمة بعد ذلك في الدراسات النفسية لتعني نمط معين من السمات يتجمع في شخص معين...

ودراسة الشخصية تقوم على أساس النظر للإنسان باعتباره كلاً متكاملاً، فهو ذو بناء وهذا البناء له وظائف تعمل في وحدة متكاملة، ومن ثم فإن الأسلوب المميز الذي تنتظم فيه هذه الوظائف لدي فرد ما هو ما يطلق عليه شخصية هذا الفرد.

والشخصية تحدد البناء الفريد لإنسان معين، والتي يمثل جوهرها قوي الذات الإنسانية، متمثلة في الروح والعقل وقابليات الفطرة، بالإضافة إلى فهم طبيعة النفس البشرية بأبعادها المختلفة، كما أوجزنا في الفصل الثاني.. ومن ثم يترتب على ذلك:

١. النظر للإنسان نظرة كلية غير تجزيئية.
٢. اعتبار خاصية التكامل والتوازن بين قوي الذات محوراً لتفسير السلوك ودنيامية الشخصية.
٣. اعتبار الإنسان مخلوقاً تتنازعه قوتا المادة والروح.
٤. استشعار أبعاد القابليات للفطرة في الإنسان.

وحين نُقر بهذه الاعتبارات، يجب أن نُقر أيضاً بأن شخصية الإنسان تعني "النفس"، والنفس في هذا المنظور تعني محصلة تفاعل القوي الداخلية المكونة للإنسان، على النحو المميز لفرد ما عن آخر، وهذا التفاعل ينتج عنه شخصية مطمئنة، أو لوامة أو أمارة بالسوء.

فالشخصية المطمئنة يتوازن فيها صراع القوي أو قوي الصراع، فهي مادية بما تتطلبه الحياة على الأرض، وهي روحية بقدر سموها فوق غرائز الجسد، متطلعة إلى خالقها، هي شخصية في سلام مع نفسها، متصالحة مع الوجود، أما الشخصية اللوامة، فهي تتأرجح في توجهاتها الحياتية بين طغيان المادة من جهة واستشعار الجانب الروحي من جهة أخري، فتلوم نفسها وتشعر بالذنب حين تطغي القوة المادية، ومن ثم تستشعر ما فيها من قوة روحية لتعود إلى الاطمئنان.

وأما الشخصية الأمارة بالسوء، فهي تلك التي تسود فيها النزعة المادية الشريرة والمطالب الجسدية الهدامة، لتكون شخصية ضعيفة، فقد تغلبت عليها قوي النفس غير السوية، فتوجهت إلى الفساد والشهوة.

معني ذلك أن النفس المطمئنة، هي التي تمثل الشخصية في قمة سويتها، وفي قمة اعتدالها، ومن ثم نجدها تستبق الخيرات، وتسير في الطريق المستقيم ومتبعة للمنهج الوسطي في السلوك، والحَسن من الأخلاق.. معتدلة في أحكامها وعلاقتها مع الغير..

وعلى النقيض من ذلك نجد شخصية أخري تجمعت فيها خصائص وسمات محورية، مثل التفكير النمطي، والتصلب، وسيطرت عليها اتجاهات سلبية حادة.. هذه الشخصية نطلق عليها "الشخصية التسلطية"...

ولقد ظهر مفهوم التسلطية أو التسلط مبكراً في الدراسات التي قام بها علماء النفس لدراسة الآثار النفسية التي ظهرت على شعوب الغرب عقب حروب "هتلر" والتي امتدت لتشكل ما يشبه الصدمة النفسية لهذه الشعوب.

وساد في هذه الدراسات مفاهيم، مثل: التحامل والتصلب و الجمود لتصف نمطاً معيناً في التفكير،ذلك التفكير الذي إذا سيطر على فرد ما أطلق عليه تسلطي، ومن ثم يكون مناهضاً ومحارباً للديمقراطية، ويسود لديه الاعتقاد بالانتساب إلى أصول بشرية سامية أو ما أطلق عليه بالمذهب العرقي Ethocentrism

ولقد كشفت الدراسات في الشخصية المتسلطة عن فروق بين انطباع الفرد المتسلط عن نفسه وانطباع الفرد المرن غير المتسلط عن نفسه، فوجد أن الشخصية التسلطية تشعر دائماً بعدم الأمن والذي يعود إلى تنشئة اجتماعية يسود فيها الكبت والعدوانية، ولهذا يوجه الفرد من هذا النوع عند الكبر ذلك الكبت وهذه العدوانية نحو المجتمع بصفة عامة وما فيه من تغير إيجابي، أو إلى الوالدين، ومجموعة الأقليات في المجتمع، إضافةً إلى محاولة هذه الشخصية دائماً إسقاط ما تشعر به من فشل وتقصير مكبوتين على التغير الايجابي أو مجموعة الأقليات، ومن ثم تحاول إيجاد مبرر لسلوكها العدواني تجاههم.

وقد وجد أيضاً أن الشخصية التسلطية تتصف بالتصلب والجمود في التفكير وعدم التسامح مع الواقع.. لذا توجهت هذه الدراسات التي تناولت الشخصية التسلطية إلى ما يطلق عليه "الدوجماتية Dogmatism" والذي يعني التشبث بالرأي والتزمت العقائدي، وأصبح هذا المحور هو المنطلق المهم لوصف الشخصية التسلطية.. وخاصية الدوجماتية التي تصف محور الشخصية التسلطية، يمكن وضعها على متصل ليبدأ طرف المتصل بالعقلية المنغلقة Closed mind وينتهي إلى طرف العقلية المنفتحة (المرنة) Open mind.. وهكذا يمكن تحديد مستوي التسلطية على هذا المتصل..

إن الشخصية من هذا النوع تعتبر شخصية معاقة نفسياً وهذه الشخصية لا يمكنها التعاطي مع منهج الوسطية، بل إنها تناهض هدا المبدأ تلقائيا، فنراها دائماً تطرفية في أحكامها، متشددة في توجهاتها ونجد منها جماعات التطرف العقائدي، وجماعات التطرف السياسي، ومروجي الفتنة الطائفية في المجتمع..

والمصيبة تكون أكبر حين يكون المتصدي للدعوة الدينية ممن تتصف شخصيته بالتسلطية، فلا يمكن أن تكون دعواه إيجابية، ولا يكون من نتيجة دعواه إلا طوائف وطوائف متتالية من المتطرفين الذين يهدمون كل تغيير إيجابي، ويناهضون كل تفكير خلاق، ويوجهون سهامهم المسمومة نحو التفكير الوسطي ومنهج الاعتدال.

ونري مثل هذه الفئة من المتطرفين في تفكيرهم والمتسلطين على إرادة وتفكير الغير، يجرون المجتمع إلى مناقشات حول موضوعات تافهة، وموضوعات ليس لها الأولوية.. إن الشخصية التسلطية شخصية يصعب عليها الاعتدال أو الوسطية في توجهاتها وأحكامها، وهي شخصية متعصبة سيئة التوافق النفسي، والتعصب في حد ذاته هو اتجاه نفسي مشحون انفعالياً، ويبدو في التطرف في الأحكام.

والقرآن الكريم ينهانا عن التعصب، أو التحامل، نتيجة الأدلة الناقصة والمعلومات غير الصحيحة.

يقول تعالى:

" وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ " (الإسراء: ٣٦)

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ " (الحجرات: ٦)

وينهانا القرآن الكريم عن التعصب ضد جنس أولون أو لغة أو نسب..

يقول تعالى:

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً " (النساء: ١)

والنداء في الآية عام لجميع البشر مستخدماً لفظ "الناس"، كذلك لا فرق بين ذكر وأنثي..

يقول تعالي:

" فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ " (آل عمران: ١٩٥)

" فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ"

(المؤمنون: ١٠١)

والتعصب يقود إلى التقليد الأعمى، تقليد بجهل وليس بعلم...

يقول تعالي:

" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ "

(المائدة: ١٠٤)

" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ (البقرة: ١٧٠)

والتعصب يعطل قوي العقل، تلك القوي والعمليات العقلية التي من المفروض أن تُمحص الحقائق، لذلك يطغى الانفعال على العقلانية.

أيضاً، ليس في عقيدة القرآن الكريم تعصب من واقع عقائدي، حيث إكراه الناس وقهر إرادتهم ...

يقول تعالى:

" لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ " (البقرة: ٢٥٦)

" فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (الغاشية: ٢١، ٢٢)

وهكذا يكون التعصب والتفكير الدوجماتي من صميم سمات الشخصية التسلطية بِتلك التي تمثل في المجتمع خطراً على الاعتدال والوسطية ...

من ناحية أخرى ، فإن الشخصية التسلطية، تبعد كثيراً عن التكيف مع المجتمع وطوائفه فلا تشعر بالانسجام مع مؤسسات المجتمع أو التصالح معها، ذلك لأنها بطبيعتها عدوانية وتسقط ما تشعر به من كبت على المجتمع، سواء أكانت جماعات دينية أم جماعات مهنية أم حزبية، أم سياسية ...

أيضاً فإن الشخصية التسلطية شخصية تفتقد قدر كبير من التوافق مع الذات، فهي غالباً تقول ما لا تفعل، وتفعل ما لا تقول، فتنادى بالقيم والأخلاق وتفعل ما يضاد ذلك بعيداً عن الأعين والرقابة ... لذا يمكن القول أنها شخصية تحمل الكثير من مظاهر وأعراض النفاق، والنفاق يعبر عن سوء توافق، ويعتبر النفاق مرض نفسي اجتماعي خطير، وانتشاره في المجتمع يمنع الحكم الموضوعي بين الناس، فتضيع الحقوق، ويسيطر الظلم، وتختفي الحقيقة، ويحتفي بالكذب، ويفقد المخلصون في المجتمع والأكفاء الدافع للإنجاز والابتكار...

يقول تعالى:

" يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ " (الفتح: ١١)

" وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمْ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمْ الْحُسْنَى " (النحل: ٦٢)

إن الشخصية التسلطية خطر على المجتمع في أي مكان وأي زمان توجد فيه وهذا ما يدعونا إلى الخوض في كيفية تعزيز الوسطية والوقاية من التطرف عبر مراحل الطفولة والشباب – في الفصل القادم.

الفصل الخامس

في سبيل تعزيز الوسطية

- قراءةٌ في المشهد المصري والعربي.
- تعزيز الوسطية عبر مراحل الطفولة والشباب.
- تعزيز الوسطية بين شباب الجامعة.
- دور المؤسسات الإسلامية والدعوية

في الفصل الحالي، نحاول أن نستعرض الحال الذي عليه المجتمع أو المجتمعات العربية، وأسباب البعد عن الوسطية في هذه المجتمعات، والصورة التي انطبعت في أذهان الغرب والتي انعكست في كثير من ردود الأفعال في الآونة الأخيرة ...ونخرج من هذا إلى تبيان كيفية تعزيز الوسطية عبر أوساط تربوية ودعوية وتدريبية وإعلامية ...

أولاً: قراءةٌ في المشهد المصري والعربي

لقد بعدت المجتمعات الإسلامية إلى حد كبير عن الأخذ بالوسطية سلوكاً ومعاملات، وساد التطرف والغلو، ومن ثم العنف والبلطجة، بل خرج العنف من الأبواب المغلقة على الأسرة والعائلة إلى مؤسسات المجتمع الرسمية، ولم يعد يقتصر العنف على فئة تمثل مستوى ثقافي معين بل تعدى ذلك إلى النخبة الثقافية والسياسية والإعلامية، حتى وصل إلى طوائف دينية رسمية في الدولة ...فعندما تغيب الوسطية منهجاً وسلوكاً، ويسيطر الفكر التسلطي فإن الإنسان لا يعترف حينئذ بوجود الآخرين إذ يُصاب بالدوجماتية التي لا تسمح له بالرؤية الواضحة لمصلحة الجماعة، ولا مقاصد الشرع ولا ظروف العصر، فتُغلق أمامه نوافذ المعرفة والحوار مع الآخر .. وهكذا يسير المجتمع من وهن إلى وهن.

وفيما يلي نعرض لبعض العوامل المهمة التى إن توفرت فى المجتمع، مال المجتمع فى سلوكياته إلى التطرف وعدم الاعتدال:

(١) شعور الناس بالظلم، وانتشار الفساد، والإطاحة بأهل الكفاءة وتفضيل أهل الثقة المُقربين غير ذى الكفاءة، وعدم وجود منافذ شرعية لوصول الرأى ورفع الظلم والاستبداد، وغياب الحرية التى هى أصل العدالة الاجتماعية .. كل هذا يجعل الإنسان مدفوعاً إلى السير بقانون ذاتى، فيجعل كل همه هو في الحصول على حقه ولو بالقوة أو العنف ..

(٢) خلوّ الساحة - تقريباً - من العلماء والكبار المخلصين الذين يجب عليهم ضبط إيقاع الفكر والإدراك والفتوى والاجتهاد فى المجتمع، وترك الساحة للمتزمتين من ذوى الشخصية التسلطية والمتنطعين فى الدين والدعوة.

(٣) خلوّ مناهج التعليم من التربية السلوكية، تلك التى تستهدف بنـــاء شخصـــية سوية غير تسلطية، والتركيز فقط على تعليم الطقوس الدينية البســـيطة، أو على الأكثر قراءة القرآن الكريم !!

(٤) تركيز وسائل الإعلام على الإثارة الفكرية والســـلوكية، واعتمـــاد أفكـــار تطرفية تصنع بها برامج ومادة إعلامية تستهدف المكسب المادى مُتجاهلـــةً الخسارة فى عقول وقيم الأمة.

(٥) الحرص على إختيار قادة المؤسســـات التعليميـــة ومتخـــذى القـــرار فـــى المؤسسات المختلفة، ممن ليس لديهم رؤية واضحة نحو أهداف مؤسساتهم، بل يتميزون بشخصية انقيادية بعيدة عن خصائص القيادة والمسئولية ليؤدي ذلك إلى فساد الأوضاع داخل المؤسسة، حتى تبقى المؤسسة علـــى حـــال متدهور ومتخلف ... من هنا ينحرف المرءوسين سلوكياً ويتطرفـــون فـــى توجهاتهم لشعورهم بالإحباط وفقد القدرة ومن ثم الشـــعور بـــالعجز وفقـــد الأمل ...

(٦) تغلب التوجه المادى على أفراد المجتمـــع، نظـــراً للظـــروف الاقتصـــادية الطاحنة التى لا يكاد الإنسان فى ظلها أن يصل إلى إشباع حاجاته الأوليـــة الفسيولوجية، ولذلك من الطبيعى أن يتجه إلى سلوكيات منحرفة أو تطرفية بعيداً عن التوجه الروحى الإنسانى، بهدف إشباع حاجاته الأولية الضرورية من مأكل وملبس ومشرب.

(٧) التفكك الأسرى، فالظروف الاقتصادية الصعبة التى يعيشها المجتمع تـــؤثر تأثيراً مباشراً على اقتراب أفراد الأسرة بعضهم من بعض، لينعدم الحـــوار ويقل التفاهم ويسود الجفاء، فالأب بعيد عن الأولاد فى دوامة البحث عن ما يطعمهم ويسد حاجاتهم، وقد يضطر للسفر إلى الخارج ويبعد عن الأســـرة شهوراً بل أعواماً .. ليعود فيجد تطرفاً سلوكياً قد سيطر على الأبنـــاء، ولا يستطيع المال حينئذ أن يعيد ما افتقده هؤلاء الأبناء.

إن العوامل السابق استعراضها والتى تمثل أسباباً مهمة للســـلوك التطرفـــى فى أى مجتمع، أراها للأسف قد توفرت جميعاً فى المجتمـــع المصـــرى وتـــوافر

الكثير منها في المجتمعات العربية؛ مما أدى إلى انتشار العنف في الحياة اليومية للناس مع غياب ثقافة التعدد السياسي والحزبي وثقافة الاختلاف والتبَاين في الآراء والأحكام، هذا التباين الذي يجب أن نقبله بعيداً عن التزمت والتسلط وتأثير الأهواء.

ولقد استشرت الفُرقة الدينية في المجتمعات الإسلامية بين شيعي وسني، وغير ذلك من الشيّع والطوائف، وأصبحت كل طائفة متطرفة فيما لديها من معتقدات، بل تحاول أن تفرضها على الأخرى.. والعجب كل العجب أن يكون ذلك في إطار الدين الواحد لله الواحد والرسول الواحد!!

وانتشر في المجتمع الفتاوى المتطرفة، وسمح كل إنسان غير متخصص لنفسه بالفتوى، وذلك في الحال الذى غاب فيه المتخصصون وغابت الرقابة الصارمة من المؤسسة الدينية، وأصبح يُعرض على الناس في وسائل الإعلام موضوعات تخدش الأخلاق والقيم في البيوت، دون حياء يَحُد من هذا أو حتى أدنى مسئولية من المختصين .. لقد أصبح الإبداع والابتكار في بلدى ليس له علاقة بالعلم، بل هو في الرقص والإنتاج والتمثيل وكتابة السيناريو .. واختفى الحياء كضابط سلوكى بين الشباب، ليظهر الشاب مرتدياً بدلة الرقص النسائية ليرقص في الأفراح والليالى الملاح، إضافةً إلى سلوكيات أخرى اختلطت فيها الذكورة بالأنوثة، والرجولة بالذكورة ..

وبوجه عام يمكننا القول أن السياسة العامة وتنفيذها على مستوى المحليات والمستوى القومى قد تغلب عليها إما الإفراط أو التفريط ... ويتضح ذلك في إصدار القوانين التى تأخذ صفة العمومية دون مراعاة لخصوصيات المكان أو الزمان أو فئة ما، مثل: قانون الضرائب العقارية الذى يتساوى فيه الغنى مع الفقير والقادر مع غير القادر.

أيضاً عند تنفيذ القانون الخاص بمجال ما، فإما أن تحدث صحوة فجأة ليتم تنفيذه يوماً أو بعض يوم، وإما تمر الشهور والأيام فلا نجد له صدى تطبيقي، مثل قانون المرور، ذلك الذى إذا طُبق فإنه يُطبق بإفراط، وعندما لا يطبق فإنه يعانى

التفريط... وهكذا يعطينا المسئولون المثل الأعلى فى السلوك التطرفـــى ... بـــل هناك الكثير مما يحدث داخل الأسرة ومؤسسة التعليم والمسجد ووسائل الإعلام ..

فى الأسرة:

لقد نزعت الأسرة إلى التفكك، وهى اللبنة الأولى فى المجتمع وتماسكها هو دالة لتماسك هذا المجتمع، فقد ساد سلوك التطرف على الاعتدال لدى رب الأسرة، الذى أصبح يقضى معظم وقته بعيداً عن مسئولياته التربوية داخل أسرته، وأصـــبح همه اليومي هو جمع المال كثيراً أو قليلاً، للوفاء بمتطلبـــات الأســـرة أو للتـــأمين المستقبلى لأولاده (أصبح هذا التوجه هو لُغة اليوم) وفى ذلك أيضاً إفـــراط يـــدل على نقص الإيمان وفقدان الرؤية الصحية للمسئولية المتكاملة، وقد حـــدث نفـــس الشيء للأم، التى خرجت للبحث عن تأكيد ذات مفقود، ونسيت أن تأكيد ذاتها هـــو نجاحها في تربية الأولاد وتخريج الرجال، وهكذا لم تصـــبح الأســـرة المصـــرية المرجع السلوكى الموجب لأفرادها، كما كان قديماً، فالأصالة التى كنا نتحدث عنها فى الماضى كانت ناتجة عن تماسك أسرى وعائلي، لتصبح سُمعة الأسرة والعائلة عند الفرد هى الموجه والضابط الموجب لسلوكه، فلا يفعل ما يُهين هذه السمعة أو يمسها بسوء ... حتى أن جيلى وأجيال سبقتنا كانت تخاف على غضـــب الأب أو الأم حتى وهما في القبور!!

في المدرسة والجامعة:

أصبحت المدرسة مجرد مبنى وهيكل وظيفى، لم تصـــبح المدرســـة هـــى المهيمنة على التعليم، فإذا كان التعليم هو تدريس ومنهج وامتحان فقد سُلبت هـــذه الوظائف منها، وأصبح المنهج مجرد معلومات وحشوّ معرفي يقدمه المعلم منزليـــاً فى الدروس الخصوصية، وأصبحت الكتب الخارجية بديلة عن الكتاب المدرســـي، وحتى الامتحان أصبح يُشترى ويباع فى المحلات، إضـــافةً إلـــى صـــور الغـــش المختلفة داخل قاعات المدرسة ... ألا يؤدى ذلك إلى سلوكيات تطرفيـــة ؟؟ لقـــد فقدت المدرسة وظيفتها، وفقد المعلم رسالته التربوية، وفقدت المنـــاهج صـــياغتها الإيجابية المؤدية إلى تكوين شخصية سوية ... ومن الطبيعي أن يؤدى هذا الحـــال إلى صورّ العنف المختلفة التى نشهدها اليوم بين التلاميذ بعضهم وبعـــض وبـــين

التلاميذ والمعلمين، وبين المعلمين وإدارة المدرسة، وأصبح التلاميذ يتبارون فـــى حمل الأسلحة البيضاء وممارسة البلطجة والتحرش الجنسي فى شوارع المجتمـــع، أيضاً، أصبحت الجامعة مجرد شكل فقد فقدت مضمونها، فقد خلت الجامعة تقريبـــاً من ممارسة تعليمية جادة، وأصبح العدد الكبير للطلبة عائقـــاً يعـــوق أى نظريـــة تربوية أو تعليمية فعالة، وأصبح الكتاب الجامعى مختزلاً فى مجرد ملازم أو مـــا يطلق عليه "مذكرات" تكاد تكون يتيمة بلا أب، فليس عليها اسم مؤلف، واقتصرت المنافسة فقط بين أعضاء هيئة التدريس على تسويق المذكرة أو الاشـــتراك فيمـــا أطلق عليه نظام الجودة الذى لم تظهر له جودة حتى الآن فهو نظام لا يمثل سوى (تورته) يتنافس أعضاء هيئة تدريس الكلية فى الحصول على أكبر قطعة منها ... أما بالنسبة للبحث العلمى، فحدث ولا حرج، فليس هناك بحوث فعالة سوى بحوث فردية يقوم بها مخلصون، أما منظومة بحث علمي تتناول مشكلات المجتمع فـــي صورة فريق بحثي ويؤدى بالمجتمع إلى تقدم فليس لها وجود فعلى - لذا أصـــبحت الجامعة أيضاً مرتعاً خصباً للسلوك التطرفي من الطلبة وأعضاء هيئة التـــدريس، وأصبح القرار الجامعي متطرفاً حتى في اختيار قادة الجامعة، فهم فقط أصـــحاب الثقة وليسوا من ذوى الكفاءة... من ناحية أخرى، فإن القائمين على نظم التعليم قد انتهجوا منهجاً يُكرس التطرف والتميز غير المبرر، لقد أصبح هناك تعليم للفقراء، وتعليم للأغنياء مدارس حكومية ومـــدارس أجنبيـــة، مـــدارس مميـــزة وأخـــرى شعبية ... وأصبح لأبناء النخبة من مهن مختلفة تميزاً واتجاهاً نحو توريث الأبناء وخاصةً فى كليات الطب والحقوق، ليحتلوا أماكن فـــي الجامعـــة أو فـــى النيابـــة العامة .. مما يؤدى إلى إثارة مشاعر الحقد والبغضاء بين طلبة الجامعـــة فيـــؤدى ذلك بهم إلى تفكير تطرفى وسلوكيات متعصبة...

في المسجد

من المفروض أن الداعية فى المسجد منوط بالتوعيـــة الدينيـــة والأخلاقيـــة وحريص على وضع جمهوره فى أحداث وسلوكيات المحيط الذى يعيشـــون فيـــه، يُفسرها لهم ويُبرز الغث منها والثمين .. فلابد للداعية حتى تصل رسالته أن يكون

معتدلاً وواعياً ومثقفاً .. مُلماً بأصول الدعوة .. وهذا لا يمثل الوضع الحالى مع كثير جداً من الدعاة .. للأسف سيطر على منبر رسول الله فى المساجد عقول مُتسلطة غير واعية بدورها، متطرفة في توجهاتها الدعوية والفقهية .. معبرة عن سطحية فى الفكر الإسلامى وضآلة في الثقافة، لذا يأتون بقصص غريبة ينسبونها إلى الأثر والمأثور، ويركزون فى خطبهم على الغيبيات وأهمها عذاب القبر، ويوظفون الترهيب لا الترغيب، متشددين فى الأحكام، وينسبون إلى رسول الله ﷺ أحاديث غير معقولة، لا يستطيع أن يتعامل معها العقل أو المنطق .. وينقسم معظمهم ما بين متشدد وما هو عكس ذلك تماماً حيث التفريط لدرجة السطحية والسذاجة ..ولقد ساهم فى ذلك ضعف الرقابة على الدعوة، وكثرة المساجد الصغيرة (المُصلى) أسفل المنازل، وعدم العناية بإعداد الدعاة وتوجيههم، وعدم الحرص على الانتقائية عند الالتحاق بكليات الدعوة وأصول الدين، فيدخل الطلبة الدعاة ضعافاً ويتخرجون فى ضعف أشد .. لقد كثرت وتزايدت أعداد المتنطعين على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأدى ذلك إلى هبوط الفاعلية الإيجابية لمصدر مهم من مصادر الإرشاد والتوجيه فى بلادنا ..

فى الإعلام

لقد كثرت القنوات الفضائية وتزايدت أعدادها وعظم دورها فى المجتمع، وفى الوقت الذى تعاظم فيه هذا الدور، أتجهت البرامج إلى الكسب المادى على حساب إيجابية الرسالة الإعلامية، فساهم الإعلام فى نشر الفساد، وزيادة الأحقاد ..

لقد كرست البرامج ثقافة العنف حيث الحوار المتشدد والمتعصب والعنيف، فلقد بعُد الحوار عن اللغة الراقية، واختنق أدب الحوار، لتبرز "قلة الأدب فى الحوار" .. واعتمدت البرامج على موضوعات تغيب فيها المناقشة الموضوعية، بل تتناول فقط زوايا للإثارة غير مبررة، ذلك لمجرد الانتشار وجمع المال الناتج عن الإعلانات المصاحبة للبرامج ... وكرس الإعلام الأحقاد داخل المجتمع، بإبرازه لسلوكيات التبزير والإسراف في حفلات الأغنياء ورجال المال والسلطان..

وقد ساهمت السرعة فى نقل الأخبار، بل ومعايشتها فى سرعة تعرف أفراد المجتمع على عمق الفساد وأساليب سلب الحقوق واغتصاب أراضى الدولة وانتشار البلطجة، بل توظيفها لصالح المسئولين عن الأمن أحياناً كما يحدث فى الانتخابات المحلية أو النيابية.

أيضاً، ساهمت القنوات الفضائية وكثرتها على ظهور الكثير من ذوي الثقافة الإسلامية الضحلة، ممن يسمون أنفسهم دعاة جدد، ليُظهروا التشدد والتطرف في دعواهم أو السطحية المفرطة أحياناً، وظهر في التخصصات المختلفة أفراداً غير مؤهلين للحديث مع جمهور عريض متباين في مستوياته الثقافية، ليبدو في حديثهم سوء الاتصال والانفصام بينهم وبين المشاهدين.

أيضاً أتاحت القنوات الفضائية ظهور أفراد ليسوا بمتخصصين فيما يتكلمون فيه أو يناقشون، بل أحياناً في مجالات ليست علمية، في محاولة لتغليفها بغلاف الأهمية أو الأكاديمية، وذلك لمجرد الإثارة، فظهرت شخصيات فاشلة أصلاً في مجالها الأصلي لتنسب نفسها إلي مجالات تستخدمها البرامج للانتشار، مثل ما أطلق عليه التنمية البشرية، والعلاقات الزوجية، والعلاج بالأعشاب.. فأفسدوا العقول، وذهبوا بها بعيداً عن الرؤى العلمية أو التفكير الموضوعي، ليحل محل ذلك التفكير الخرافي والاتجاهات السلبية، والإدراك المشوّه، وتنمية السمات التسلطية..

ولقد ساهمت القنوات الفضائية ووسائل الاتصالات الحديثة على اختلافها، أيضاً في معايشة الفرد للأحداث الجارية أولاً بأول، إقليميا ودولياً، ليري الناس بأعينهم العنف الصلف الذي تمارسه إسرائيل على غزة وشعب فلسطين، ومدي دعم العالم لها، وآليات الكيل بميزانين في التوجه الأمريكي، علاوة على السلوكيات التي يمارسها المتأسلمون في العراق وفلسطين.. حيث صور القتل بالسيف لمواطنين عزل تحت ستار تعاليم الإسلام، والإسلام منهم براء، إضافة إلى الشباب المجند كقنابل بشرية في فلسطين والعراق بدعوى الجهاد.!!، أليس هذا كله كفيل بتوجيه البنية النفسية والعقلية للإنسان المعاصر إلى البعد عن الوسطية؟! بل وتشويه صور الإسلام والمسلمين في العالم، والذي لمسنا آثاره حديثاً ؟

إن المجتمع في حاجة إلى مبادرات سياسية وثقافية وتربوية وعلمية للعلاج وإنقاذ الأمة من التردي الذي وصلت إليه.. وهذا هو الهدف من مناقشة الموضوعات القادمة في الفصل الحالي..

ثانياً: تعزيز الوسطية عبر مراحل الطفولة والشباب

عندما يكون الموضوع بشأن تعزيز الوسطية عبر مراحل الطفولة والشباب، فإن المقصود في المقام الأول هو التركيز على دور الأسرة.. وسوف أبدأ حديثي عن موجهات عامة تمس كلا من الطفل والشاب، ثم انتهى إلى ثلاثة مداخل مهمة تبدأ مبكراً في مراحل الطفولة حتى تعطي الوقاية اللازمة لمرحلة الشباب.

لابد أن تميل الأسرة إلى أسلوب معتدل في تربية أبناءها، وهو الأسلوب الذي لا يميل إلى الحماية المتزايدة، تلك التي فيها العنف والقسوة، وفي نفس الوقت لا تميل إلى التفريط في الحماية تلك التى تؤدي إلى فقد المسئولية الأبوية في المراقبة والتوجيه وإرشاد الأبناء.. إن الأسلوب الذي يميل لأي طرف من هذين الطرفين يعتبر أسلوب طرفي، أما الأسلوب المعتدل ففيه ممارسة حكيمة للرعاية، بمراقبة لا تُحرج الابن أو تجعله أضحوكة بين قرنائه، أو تُضعف من شخصيته فتجعله شخصية تافهة غير مسئولة تشعر بالخزي، وبالأسلوب المعتدل نصنع علاقة أبوة وصداقة متدرجة مع الأبناء، فيها الإثابة والعقاب، لكنه عقاب بعيد عن الضرب والإهانة والتجريح، وعلينا أن نبث إليهم التعاليم الدينية والمفاهيم الأخلاقية بإيحاء أكثر من أن يكون بطريقة مباشرة، في صّور قصص مثلاً وأحداث مروية أكثر من أن يكون في صورة تعاليم وتوجيهات سلطوية..

وعلينا أن نكف عن ترديد تعبير "المراهقة"، فالمراهقة في نظري تمثل فترة الكمون فقط، تلك التي تسبق البلوغ مباشرة، لكن عندما يبدأ الفتي البلوغ، يبدأ شعوره بالرجولة، وتشعر البنت بكامل أنوثتها، وهنا يجب أن نوجه حديثنا إليهم بأسلوب يشوبه الاحترام والتقدير والنضج أيضاً، وإشعاره أو أشعارها بالمسؤولية، وأنه أو أنها قد أصبحت مسئولة عما تفعله، فكان العرب قديماً يحتفلون ببلوغ الفتي

وفي الاحتفال يعلن الأب عن تمام مسئوليته في تبليغ ولده تعاليم دينـه، والمفـاهيم الأخلاقية والعُرفية في القبيلة، ذلك على مشهد من أفراد القبيلة، وهنا يكون الفتـي قد بدأ طريق الرجولة...

لكن إصرارنا الغريب على إطلاق كلمة المراهق حتى يصل الفتي إلى سن ١٨أو ٢٠ عاماً، شئ أدي بالفتي أو الفتاه إلى الانسحاب من المسئولية وارتكـاب الأخطاء بحجة سلبيات المراهقة التي نعلنها له، لقد أشعرناه بمراهقة وهمية فازداد رهقاً وسلبية.. إن الفتي بعد البلوغ قد أصبح مسئولاً أمام ربه عن ذنوبه وصـالح أعماله.. فلابد أن يعيش ذلك الأمر، فنضيف له أدواراً منزلية، يؤكد بها ذاته، حتى لا يبحث عن هذا الدور لدي جماعة متطرفة، وحتى يجد في ذلك سعة من التكيف الموجب أو التوافق النفسي الفعال، تمهيداً لتحقيق ذاته تدريجياً عبر اختياره لتعلـيم جامعي يهفو إليه، ومهنة يتطلع إليها، وأسـرة يبغـي تكوينهـا، إنـه الاسـتقلال المرغوب فيه..

إن حالة تبعية الابن الزائدة لأبيه، لابد أن يحدث لها تعديل فـي المجتمـع، لنتجه به نحو السلوكيات التى تؤدي إلى مزيد من الاستقلالية، فإن هذه الثقافة قـد أضعفت الخبرة لدي أبنائنا وأطالت من فترة اعتمادهم على الغير، وضاعفت مـن تأخرهم في القدرة على الاختيار الصحيح لطرق ومسالك الحياة التى تواجههم.
والدليل على ذلك أننا نجد الشباب الذين فقدوا الأب أو الأبوين مبكراً، أكثر قـدرة في تحملهم المسئولية، وأكثر شعوراً بالذاتية، وأعلى خبرة في أمور الحياة..

لا شك أن الوالدين لديهما الدفع الذاتي في النزعة إلى رفع مستوي معيشـة أبنائهم المادية بكل قوة، ولكن في كثير من الأحيان ينسي الآباء أن للأبناء مطالب نفسية أكثر أهمية..

فنري الأب تتمركز مهامه اليومية حول وظيفته أو متطلبات عمله ويهمـل التواجد المعنوي في بيت الزوجية، يجعل المهام الوظيفية هي كل مقصـده وقبلتـه في الحال الذي لا يكون فيه راعٍ ومسئول نفسياً عن رعيته.. وإذا وجد بين أفـراد الأسرة نراه وجوداً مادياً، فلا يشبع في وجوده التواصل النفسي المطلوب للأبنـاء،

بل للزوجة أيضاً.. ويزيد الطين بله بسفره للخارج عاماً أو عامين أو ثلاثاً، ليراهم كل عام مرة أو مرتين على الأكثر بحجة زيادة الدخل!

وهنا تكون المادة قد تغلبت على الأمور النفسية والجوانب الروحية التي تتطلب الإشباع.. أصبحت تعبيرات مثل "ضمان المستقبل" "وتأمين الأولاد" عبارات تدل على التطرف وليس على الاعتدال، فأي مستقبل هذا الذي سيضمنه بالمال..؟ وأي مستقبل هذا الذي نضمنه في ظل عقول خاوية وعقد نفسية وزوجة فقدت التواصل وفقدت حقوقها الشرعية..؟

إن الزوج أو الأب الذي يميل إلى خصائص الرجولة وليس مجرد الذكورة، يمنعه الحياء فيه أن يكون هذا هو طريقه، وتلك الأفكار هي دفوعه.. إن مثل هذا الأب وبخصائص الرجولة فيه لابد أنه يتقي الله في أبنائه وزوجته، ولا يجعلهم يعيشون يُتماً في وجود أبيهم.. لابد أنه سيتجه إلى بناء عقولهم ووجدانهم ويرعى فيهم النفس ليصل بها إلى الاطمئنان والإيمان والسوية النفسية..

إن غياب الأب عن المنزل يجعل الأسرة غير مستقرة، وغير آمنة، فلا يستطيع الأبناء إشباع الانتماء والحب، وبدلاً من إثبات ذواتهم على نحو موجب على أساس مبادئ عقلية سوية وجوانب نفسية موجبة يخوض بها هؤلاء الأبناء ضروب الحياة بشخصية سوية، إذ بهم يخوضون الحياة بعقلية مادية تطرفية، تفقدهم اللغة السوية في الحوار والتعامل مع المجتمع، وقد يبحثون عن الأمن المفقود في الأسرة عند جماعة شاذة أو متطرفة....

لا تعجلن فليس الرزق في العجل		الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل
ولو صبرنا لكان الرزق يطلبنا		لكنه خُلق الإنسان من عجل

ومن العوامل التي تساهم في نشوء أسرة مستقرة:

١. حرص الآباء على التواجد المسئول تربوياً ونفسياً مع الأبناء حتى مع القصور في المادة..
٢. توفير جو أسري يسوده الاحترام المتبادل بين الأبوين وبين الأبناء.

٣. عدم تفضيل الآباء للذكر من الأبناء على الأنثى، فذلك يؤدي إلى احتقان نفسي، ينمو إلى فكر تطرفي، ويؤدي بالولد إلى سوء تكيف مع المرأة مستقبلاً، وربما يُكوّن اتجاهات سلبية نحو المرأة تعوق اتخاذه للاعتدال سبيلاً..

٤. عدم تفضيل الآباء لأحد الأبناء، فالعدل في التعامل سواء أكان مادياً أم نفسياً يُعطي الابن أو الابنة الأمن النفسي، فلا تميل إلى التزمت والتعصب والتطرف مستقبلاً..

٥. الحرص على عدم عقاب الآباء للأبناء أمام زملائهم أو أقرانهم، حتى لا ينمو الشعور بالدونية، ذلك الذى يؤدى بهم إلى الانحراف أو التطرف السلوكي.

٦. يجب أن تمهد الأم لابنتها دخولاً سلمياً إلى مرحلة البلوغ، فتقترب منها أكثر وأكثر فى مرحلة الكمون التى تسبق البلوغ مباشرة، متحدثةً معها عن التغيرات الجسمية والفسيولوجية التى هى قادمة عليها، وأن هذه التغيرات طبيعية .. مما يؤدى إلى تقليل بل انعدام الصدمات النفسية التى تحدث للبنات فى هذه المرحلة، وربما تؤدى بهن إلى دخول المستشفي، ذلك إذا لم تكن البنت على دراية بهذه التغيرات المفاجئة .. وكذلك يجب على الأب أن يقوم بنفس الدور مع الصبي، وإن اختلفت المعلومات، فيقى الصبي مستقبلاً من كثير من مشكلات الأداء الجنسي التى يواجهها الشاب عند زواجه، والتى فى الأغلب تكون ناتجة عن أداءات خاطئة وجاهلة فى مرحلة البلوغ ...

بل إن الأمر، لابد أن يبدأ مبكراً أكثر من ذلك، حيث مسؤولية الآباء فى تربية الأبناء على العفة والطهارة، تلك التى من المهم أن تبدأ فى مرحلة الطفولة الوسطى .. وذلك عن طريق غرس الآداب الصحيحة وتهذيب التوجهات الجنسية الكامنة، في الفترة ما بين العام السابع من عمر الطفل وحتى بداية البلوغ، تلك الفترة التى يُطلق عليها "فترة الطفل المستأذن"، والتى يقول فيها ربى سبحانه وتعالى:

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ..." (النور: ٥٨)

أما فى مرحلة بلوغ الحلم فيكون الطفل أكثر إدراكاً ووعياً وتمييزاً، وهنا يوجهنا رب العزة سبحانه وتعالى إلى تعويدهم على الاستئذان ..

يقول تعالى:

"وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (النور: ٥٩)

ويجب أن نُفرق بينهم أثناء النوم، أى بين الأولاد فى هذه المرحلة، وخاصة بين البنت والولد ..

٧. يكون الصبى أو الصبية في مرحلة البلوغ أكثر نزعة للاستقلالية وتأكيد للذات، من هنا يحتاج الآباء إلى مزيد من الكياسة والفطنة فى التعامل معهم، فلا نؤدى بهم إلى فقد التوازن النفسي، حين يتصور الصبى أو الصبية أن الأب يُفقده ذاته واستقلاليته، تلك التى تغذى ذات الصبى بالشعور بالرجولة وتغذى ذات الصبية بكمال الأنوثة، فعلى الآباء أن يتبعوا طريق الاعتدال، فلا قهر أو تعليمات صارمة ولا تسيب ورفع الرقابة كاملاً لكن يجب الحرص على إشعارهم بالأهمية، مع مستوى معتدل من المدح ليس مبالغاً فيه، مرتبطاً بمناسبة فعلية تستحق المدح والتقدير ..

ومن أجل أطفال سوف يصبحون شباباً أرى أن حل مشكلة اليوم من ظواهر التطرف والتعصب هو في تنشئة وارتقاء هؤلاء الأطفال على أسس ايجابية تُقيم فيهم التوازن وتُبعدهم عن هذا التطرف والتعصب ... هذه الأسس تتلخص في ثلاثة محاور:

- تماسك الأسرة وتحملها المسئولية.
- تربية "التوازن" لدى الطفل.
- التربية العقلية ..

(١) تماسك الأسرة وتحملها المسئولية:

لاشك أن الزوجان فى وضع الراعي والمسئول عن رعيته.

يقول تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ..."

(التحريم: ٦)

ومن ثم فإن تفريط الأبوين أو أحدهما فى مسئولية تنشئة الأولاد تنشئة قويمة يعنى تفريطاً فى الأمانة، فيُضعف ذلك من ارتباط الابن بأسرته، وهنا يكون من اليسير على الابن أن يجرى وراء تيار ما، أو يُصاحب جماعة ضالة تسيء إلى المجتمع أو الدين أو الأخلاق.

إن تماسك الأسرة يُزيد من ارتباط الابن بها ويُنمى لديه الانتماء والاعتزاز بأسرته، ومن ثم تصبح أسرته مرجعاً موجباً لسلوكه، ليصعب عليه نفسياً أن يسيء إليها بتصرف ما، ويظل فى حياته يحرص على أن يرفع من شأنها وسط الناس.

ذلك على خلاف الأسرة المُنهكة والمفككة التي تُسهل نفور الابن منها والبحث عن دور فى مكان آخر، حيث جماعة أو صُحبه ينتمى لها ويؤكد ذاته فيها سلبياً، وفى هذه المسيرة بالطبع سوف يطرق باب التطرف أو التعصب سلوكاً أو رأياً، وقد يكون ذلك من دافع الحقد أو جهل بمعلومات صحيحة، وفى كل الحالات سوف يعادى المجتمع على نحو ما بسبب منطقى وغير منطقى ..

ومن خلال هذا الأساس يمكن تحديد ثلاثة موجهات:

- تجنب الأسرة لسلوك تفضيل طفل فيها على الآخر، إن هذا السلوك كما ذكرنا سابقاً قد يكون من الأخطاء الجسيمة التي تقع فيها بعض الأُسر، فتبالغ فى تدليل طفل معين، وتبطيء فى الاستجابة لمطالب طفل آخر، وقد تكون هذه الأخطاء من المسببات المهمة لنمو انفعال الحقد والحسد بين الأخوة، ذلك الانفعال الذى يدفع إلى العدوان والتطرف مستقبلاً.
- تهذيب الغضب وتوجيهه ... قد يتعود الطفل مبكراً أنه بالغضب يستطيع الحصول على ما يريد من أبويه، ويستمر نمو وتوظيف هذه الآلية بمستوى ما

مع مراحل متقدمة من عمر الابن / الابنة، لينمو عند مثل هذه الأبناء سمات مترتبة على ذلك منها الميل إلى نهم التملك، والضعف أمام الرغبات، والتزمت بدلاً من المناقشة أو الحوار، ومع كبر الابن ومواجهة المجتمع يصعب تكيفه مع المجتمع على نحو موجب، فهذه السمات تعوق هذا التكيف لينزع إلى التطرف في إشباع رغباته وينزع إلى التعصب لتبرير سلوكه .. وهكذا.

من هنا وجب على الأسرة ألا تجعل اتخاذ الطفل للغضب وسيلة سهلة للحصول على ما يريد بل يجب أن تُربى فيه المبرر المنطقى، وتكون طلباته كحق أمامه واجب، وأن يحصل على ما يريد مقابل أداءً مطلوباً ومناسباً ...

- رعاية الأسرة للصبى البالغ .. يُذكر عن مرحلة البلوغ أنها قد تبدأ عند الصبى ولا تنتهى، بمعنى أن هذه الفترة زمنياً تنتهى، لكن يبقى فى شخصية الشاب أو الفرد ظلالها، والتى منها إحساسه بعدم التقبل الإجتماعى، والنظر لنفسه وقدراته نظرة دون المستوى، غير واثق بنفسه، ينقصه فهم واضح عن ذاته .. هذا، إذا لم يستطع الأبوين الوصول بالابن إلى حالة من السوية في مرحلة البلوغ، وبالتالى يندفع الصبى خارج عباءة الأسرة والأبوين، ليبحث عن دور مفقود فى الأسرة، لدى جماعة أو صحبة متطرفة أو متعصبة منهجاً وسلوكاً، وبالتالي ندعو الأسر إلى تقبل حاجات الصبى، إضافة إلى زيادة الفرص لتأكيد ذاته وتفريغ طاقاته عبر تنمية الأسرة لهوايات أبناءها واشتراكهم فى أنشطة مدرسية مناسبة، ونوادى رياضية أو اجتماعية على نحو موجب ومفيد.

(٢) تربية "التوازن" لدى الطفل:

إن فترة الطفولة هى أرض خصبة لتدريب الطفل على منهج "مجاهدة النفس" من أجل وصول الطفل مستقبلاً إلى توازن سلوكى، ويتم التدريب من خلال تهذيب الأسرة لانفعالات الطفل أولاً بأول وخلال إشباع حاجاته.

ففى الوقت الذى يجب أن تربى فيه الأسرة أطفالها على عدم الإسراف فى المأكل والمشرب والملبس يجب أن تبعدهم عن البخل أو الشح ... حيث من المفيد تلبية حاجة الطفل المادية (مأكل / مشرب / ملبس) مرتبطاً بتوجيه يوضح أن

زيادة الاستهلاك غير مرغوب فيه، ومع مراحل العمر المختلفة تختلف أساليب الأسرة نحو هذه التربية، وكذلك لكل موقف متطلبات خاصة..

أيضاً يجب وصول الطفل إلى حالة من الاعتدال في انفعالاته، فلا يصل إلى حد المبالغة في الوقت الذي لا يصل فيه إلى حالة من التبلد الانفعالي وبطيء في الاستجابة، فلا يجب أن نعّود أطفالنا على الضحك الهستيري مثلاً وليس مطلوباً عكس ذلك تماما، بل نهذب هذا الانفعال سلوكياً فيهم، كذلك نصل بهم تدريجياً إلى الإحساس بالفرحة بموضوعية والشعور بالحزن أيضاً بمنطق وموضوعية ليصل إلى وسطية الممارسة، والتي تمتد بالطفل والشاب إلى توازن في ممارسة مهام الحياة، فيعيشون في حالة من السلام النفسي الذي يعوق وصول الفرد إلى حالة من التطرف أو صورة ما من صور التعصب.

(٣) التربية العقلية:

تهدف التربية العقلية إلى تنمية التفكير وعدم الأخذ بالظن والهوى في الأحكام .. وعدم التقليد الأعمى. لذلك يجب أن تتبع الأسرة والمدرسة الآتي في سبيل تحقيق تربية عقلية ناجحة لأطفالنا.

- أن نعّود ونُدرب أطفالنا عبر تنشئة أسرية ودراسية على احتمال الصواب واحتمال الخطأ، على تقبل الهزيمة كما يتقبل النجاح، هذا التعود يربي في الفرد عدم أخذ الأمور بانفعال، بل بعقلانية، بمنطق ومبرر موضوعي، وليس على أساس الظن وعبادة الهوى والمعلومات الخاطئة.
- أن نعوّد أطفالنا على التأكد من المعلومات الصحيحة ومصدرها قبل الحكم على الأمور والأشياء والمواقف.
- أن نُبعد أطفالنا عن الخرافات والشعوذة والتنبؤ بالغيب، لذا لا نبالغ في تقديم أدب الخيال، خاصة في فترة الطفولة المتأخرة، وفي الوقت نفسه يجب أن نفسر موضوعياً لأطفالنا - حسب أعمارهم الزمنية - التقاليد البالية والعادات السيئة والأفكار المضللة في المجتمع.
- تدريب أطفالنا على الوصول إلى النتيجة أو الهدف عبر خطوات التفكير العلمي أو الموضوعية المعروفة، وألا يُثاب الطفل فقط على وصوله إلى الهدف كاملاً

أو النتيجة النهائية، بل يجب أن يُثاب على الخطوة الصحيحة في طريق الهدف أو النتيجة حتى ولو لم يصل إلى نهاية الهدف.

- أن نربى فى أطفالنا سمة التواضع وسمة احترام من هو أكبر منهم، أو أعلم منهم، وأهمية السعى للمعرفة عند الغير الأكثر علماً فى أى مكان وزمان.

وأخيراً ... إذا كان التعصب هو اتجاه مشحون انفعالياً ويقوم على سند غير منطقى أو معلومات غير كافية، بل ربما يستند إلى خرافات وأساطير وفهم خاطيء للعقيدة، فإن علاج هذا التعصب يكون فى التربية العقلية الموجهة، والتى يجب أن تبدأ من سنوات الطفولة الأولى، ويجب أن يتكامل من أجلها دور الأسرة مع دور المدرسة، ويتم تطويع المنهج المدرسى بما يلائم هذا الهدف، حتى لا تفرز أسرنا أو مناهجنا شخصية تسلطية تهدم كل ما لدينا من بنيان وتعود بنا إلى مزيد من التخلف والانحسار ...

ثالثاً: تعزيز الوسطية بين شباب الجامعة

الشباب الجامعى يمثل شريحة مهمة من شرائح الشباب بصفة خاصة، وأيضاً يمثل شريحة مهمة من شرائح المجتمع بصفة عامة، حيث إن هذه الفئة من الشباب هي الركيزة الأساسية لمستقبل الوطن، فمنهم من على عاتقه نشر المعرفة والخبرة العلمية لبقية شرائح المجتمع مستقبلاً... وأرى أن هذه الشريحة الآن تعانى الكثير من الضعف فى جميع صوره، إنها تعانى الضعف المعرفى والمتخصص والضعف الثقافى، والضعف السياسي، حيث لم تصبح الجامعة هى معمل التفريخ الفاعل الذى يُفرخ النخبة السياسية والثقافية والمتخصصة، لقد ضعفت الجامعة، وعجزت الآن إلي حد كبير عن تأدية وظيفتها ... كما أوضحت سلفاً - لكن يبقى ما يُطلق عليه على الأقل منظومة جامعية، ونستطيع أن ننهض بها، إن أردنا ذلك ..لا يجب أبداً أن نمنع شبابنا في الجامعة عن الممارسة السياسية، فأين يتعلم الشباب سُبل التعبير عن الرأى، وممارسة الحرية، وسبل الحوار الفعال - إذا لم يستطيعوا تعلمها وممارستها فى الجامعة؟

إن هذا النوع من التعلم والممارسة، يجعل الشاب بعيداً عن التطرف الفكرى مستقبلاً، بعيداً عن الانحراف والتعصب، قريباً من ممارسة الاعتدالية ... ويتم تعلم ذلك عبر الندوات وإتاحة الفرصة للمناقشة والاستماع للطلبة.. وعبر النشاطات الطلابية فى إطار اتحادات الطلبة، والتى يجب أن يتم فيها الانتخابات بنزاهة وحيدة من قيادات الجامعة ... أيضاً، يتم ذلك عبر إتاحة الفرصة لممارسة الهوايات الفنية بشتى صورها، وتشجيعها، وصرف الجوائز القيمة لها، وإصدار الصحف التى تُعبر عن رأى الطلبة فى إطار سقف مرتفع من الحرية ...

إن الحديث فى زاوية الممارسة الطلابية الحرة للأنشطة والتعبير عن الرأى يطول، فلذلك الأمر سبل كثيرة داخل أسوار الجامعة، ويعرفها ذوى الشأن ويستطيعون استعادتها، وفى استعادتها تعزيز لمنهج الوسطية .. لذلك سوف أترك هذه الزاوية لأخوض فى زاوية أخرى لم يلتفت إليها أصحاب الشأن فى الجامعات، تلك الزاوية المهمة تتلخص فى **التأكيد على دور علم النفس والتربية فى تعزيز الوسطية والبعد عن التطرف بين شباب الجامعة ...**

إن وعي واستيعاب المتخصصين في علم النفس بصفة خاصة، وعلوم التربية بصفة عامة للهدف من الفصول الأربعة السابقة فى الكتاب الحالي، من المفروض أن يدفعهم إلى البحث عن الدور الفعال لعلم النفس فى مجال الإرشاد والتوجيه للوسطية، بل لوقاية الأطفال مبكراً من وقوعهم مستقبلاً فى براثن التطرف والتعصب الذى يعانى منه مجتمعنا الحبيب اليوم .. ولعل الفصول الأربعة السابقة - أيضاً - قد أوضحت بما لا يدع مجالاً للشك على أن قرآننا الكريم وتراثنا الإسلامى قد تناول الأبعاد والأسرار العميقة فى النفس البشرية، وأن إهمالنا لهذا النبع الفياض يجعلنا فى موقع غير المؤدى للأمانة وفى موقع المُفرطين فيها، أو فى موقع الغافلين عن كنز من المعرفة النفسية والتربوية يمكن – إن أحسنا التعامل معه – أن نسود به على نظريات الغرب، تلك التى تتناول البناء النفسي للإنسان ووسائل تنشئته وارتقائه، من زوايا لا تتفق وطبيعة الإنسان.

وتأكيداً على هذا فإننى أحاول هنا أن أقدم نموذجاً للدور الذى يجب أن يقوم به المتخصصون فى علم النفس عند تدريسهم لموضوعات هذا العلم، بحيث تساهم

في تعزيز مبدأ الوسطية فهماً وتطبيقاً لدى شباب الجامعة ... فمن خلال تـدريس موضوعات علم النفس يتم الإرشاد والتوجيه للوسطية، كما يلي:

- الوسطية والدوافع.
- الوسطية ومجاهدة النفس.
- الوسطية والانفعالات.
- الوسطية والتوافق والنفاق.
- الوسطية والتعصب.

إن هذه الموضوعات تمثل القليل من كثير جداً من الموضوعات التي يمكن أن يلعب علم النفس من خلالها الدور المنشود، إضـافة إلـى مهامـه التدريبيـة والتنويرية من أجل تعزيز الوسطية ...

(١) الوسطية والدوافع:

تُدرس الدوافع فى مجال علم النفس على أنها دوافع نفسية ودوافع اجتماعية تارة ودوافع شعورية ولا شعورية تارة أخرى ... وفى ضوء فهم آلية التوازن فى البناء النفسي يجب أن يتجه المتخصصون إلى طرح موضوع الدوافع مـن قبيـل التوجه المادى فيها ممتزجاً بالتوجه الروحى، فإشباع الدافع على نحو سوى يقـود إلى سلوك سوي فيه الاعتدال والوسطية، ومن هنا تبرز دوافع جديدة للشباب منها دوافع الإيثار والتعاطف والتدين، إضافة إلى استشعار الشاب للبعد الروحـى فـى الدوافع الأخرى مثل: دوافع التملك والتحرر والمعرفة والفهم.

(٢) الوسطية ومجاهدة النفس:

إن فهم مبدأ التوازن الصحيح فى النفس البشرية - كما أسلفنا - وهـو بـين طرفي المادية والروحية، يُلغى مبدأ الصراع الذى أقره "فرويد" بين غرائز الحيـاة وأهمها غريزة الجنس وغرائز التدمير والتى فيها عدوان واعتداء على الـنفس .. ذلك التوجه الفرويدى الذى ما زال يُروّج له كثير من المتخصصين فى علم النفس فى الجامعات العربية للأسف.

إن فى مبدأ التوازن بين المادية - الروحية تكريمُ للإنسان وواقعية تتفق مع وجوده على الأرض متطلعاً إلى ربه موصولاً به، وفيه تفسير لإصرار النفس على

المجاهدة فى سبيل وصولها للتوازن المرغوب فيه والذى يُقيم الوسطية ... فشرح طرفيّ التوازن على هذا النحو لأبنائنا فى الجامعات يُتيح لهم فهم الوسطية التى ترتبط بكثير من المفاهيم التى يجب نشرها بينهم ومنها "ثبات النفس" "والإرادة" فتثبيت النفس يعنى الثبات على الحق والموضوعية وصولاً بالنفس إلى الطمأنينة وسعادة الدنيا والآخرة.

يقول تعالى:

" يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ..."

(إبراهيم: ٢٧)

وثبات النفس يحتاج إلى الإرادة والعزم وصولاً بالمجاهدة إلى التوازن ليكون منهج الوسطية هو المنهج السائد فى سلوك الإنسان.

(٣) الوسطية والتكيف - والتوافق والنفاق:

إن تناول موضوع التكيف ما زال يتم فى علم النفس من زاوية ملائمة الإنسان للواقع المادى ... ويُعد هذا تضليلاً لا يتفق مع الفهم الصحيح لبنية الإنسان النفسية وركائزها كما أسلفنا.

فالتكيف لابد من تقديمه للشباب من واقع فهم التوازن فى الإنسان بين المادية والروحية، وفى هذا يعطينا فهماً أفضل وتمييزاً واضحاً بين ما يطلق عليه تكيفاً وما يطلق عليه توافقاً ... فإذا كان التكيف يعنى مدى ملائمة سلوك الإنسان لمتطلبات البيئة فإن التوافق يعني مدي ملائمة سلوك الإنسان لما يؤمن به من قيم ومباديء .. ومن هنا فإن زاوية التوازن بين المادية والروحية تجعلنا نعزز التوافق لدى شباب الأمة، ولو على حساب قدر من التكيف .. حتى يتم توازناً وسطياً ملائماً بين متطلبات الشاب وواقع الجماعة.

فإذا نجح الشاب فى تحقيق التوازن بين اشباعات الحاجة المادية وإشباع حاجاته الروحية، بين اهتماماته الشخصية واهتمامات الجماعة، بين مطالب الجسد ومطالب الروح فاز بالتوافق أو التكيف الموجب، لذلك فإن الأخذ بهذا المنحى فى دراسات علم النفس يوضح أهمية اعتدال الشاب فى الإنفاق المادى، مثلاً وأهمية اطمئنان القلوب، والجوانب المحققة للحياة

يقول تعالى:

" الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ"

(الرعد: ٢٨)

" مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً"

(النحل: ٩٧)

" وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً" (الطلاق: ٤)

وأيضاً يجب طرح موضوع النفاق فى ضوء آلية التوازن .. وعلى أنه يعنى سوء توافق، فالإنسان بالنفاق يحاول أن يتكيف (سلبياً) وذلك على حساب التوافق الذاتى، ويعتبر هذا مرضاً اجتماعياً خطيراً ... لهذا يتبع المنافق سبيل الحكم غير الموضوعى على الأشياء والمواقف فيُحسن الباطل ويشوه الحق، ويثنى الصدر.

" يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ......." (الفتح: ١١)

" أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ....." (هود: ٥)

(٤) الوسطية والتعصب

يُعَرف علم النفس التعصب على أنه اتجاه نفسي مشحون انفعالياً، ولا يقوم التعصب غالباً على سند منطقى أو معلومات كافية أو مبدأ علمى مؤكد، بل ربما يستند إلى أساطير وخرافات أو أمثال شعبية ... والمتعصب ذو شخصية تسلطية تتصف بالتجمد والتصلب والتحامل، ويبدو ذلك فى تعصب دينى أو مذهبى أو عنصرى أو سياسي.

ويعدد علم النفس جوانب عديدة للتعصب، لكن يجب تدريس التعصب للشباب أيضاً فى ضوء خصائص الوسطية والاعتدال ... ذلك وفقاً لمبدأ التوازن بين المادة والروح.

فالحرص على جمع المعلومات الصحيحة والدليل القاطع يقود إلى اعتدال فى الحكم ومن ثم عدم التعصب.

يقول تعالى:

" وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ..." (الإسراء: ٣٦)

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا..." (الحجرات: ٦)

ولابد من نشر ثقافة التباين والتعدد بين الناس واختلافهم فى اللون والجنس واللغة، ولا فضل لأحد على آخر إلا بعمله وتقواه".

يقول تعالى:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً...." (النساء: ١)

ويجب نشر ثقافة عدم التمييز بالحسب والنسب والعرق والأصل، إضافة إلى تعزيز المرونة في التفكير لدي الشباب.

يقول تعالى:

" فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ"

(المؤمنون: ١٠١)

" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ"

(المائدة: ١٠٤)

ويجب نشر ثقافة حرية الأديان بين الشباب فلا تعصب من واقع ديني يُكره الناس ويدفعهم في اتجاه ديني معين.

يقول تعالي:

"لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الْغَيِّ" (البقرة: ٢٥٦)

" فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ" (الغاشية:٢١،٢٢)

(٥) الوسطية والانفعالات:

تمثل الانفعالات وكذلك العواطف موضوعات هامة في دراسات علم النفس، حيث يتناولها من زاوية المتغيرات الوجدانية، ومن ثم يحدد دورها في السلوك الإنساني ويصيغها إلى انفعالات بسيطة ومركبة، ولكن يجب أن يتناول علم النفس

في الدراسات الموجهة للشباب دور النضج الانفعالي في الوصول إلـى الوسـطية ومن ثم نشرها لدي الشباب المسلم.

فليس من المفيد أن يصل الإنسان في انفعالاته إلى حد المغالاة والتطـرف ولا يُستحب أيضاً أن يكون في الوضع الذي يوصف فيه بالجمود والتبلد ... لكـن يجب الاعتدال.

يقول تعالى:

" لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُـلَّ مُخْتَـالٍ فَخُورٍ" (الحديد: ٢٣)

وتوجيه نظر الشباب إلى هذه الآية الكريمة يقود إلى الاعتـدال الانفعـالي، المقترن بشكر الله على نعمته ومن هنا أقول: يجب أن ندرب شبابنا على النضـج الانفعالي ليسيطر الشباب على انفعالاته ويتحكم فيها، ويصبح في وضع المـتحكم في سلوكه، وحيث الموقف يتطلب إرجاء الانفعال أو إشباعه... وهذا ينعكس أيضاً على كيفية إشباع دافعه في الوقت المناسب وإرجائه إلى الوقت المناسب.

إن تدريب شبابنا على ذلك ونشر هذه الثقافة عبر دراسـات علـم الـنفس والدورات المعنية بذلك في الجامعات تحيل الغضب عنـد الشـباب إلـى هـدوء، والعداوة إلى صفح وتسامح والاندفاع إلى صبر ومثابرة.

ومن ثم يتحمل الشباب النقد وعواقب الفشل، طارداً الحقد والبغضـاء فـي سبيل المنافسة الشريفة.

وهناك بعض الموجهات النفسية التربوية التي يجب أن توظف في سـبيل تدريب عملي عبر دورات متخصصة من أجل تعزيز الوسطية:

١. التدريب على البعد عن الظن والتخمين والاتجاه إلى المعلومات الصحيحة فـي الموضوع والذي يطمئن الشاب إلى مصادرها.
٢. التدريب على اختيار الشاب لما هو أقرب للسكينة والاطمئنان النفسي ثم يتوكل على الله حين تتعدد السبل وتتشعب الآراء.
٣. تدريب الشباب على استباق الخيرات، والتمسك بها، وسيادة تزكية النفس لديهم على الدس والهوى.

فهذا المنحي يؤدي بالشباب إلى طرد الوساوس والخواطر الشيطانية، فمن الصعب على الإنسان أن تستولي عليه نزعتان متضادتان في آن واحد.

يقول تعالي:

" مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ" (الأحزاب: ٤)

٤. تدريب الشباب على أن يجدوا لانفعالاتهم مخرجاً، وحتى لا يصلون إلى الكبت نتيجة لتكرار كبت الانفعالات، ويتحقق ذلك في ممارسة الأنشطة والهوايات تارة، أو تبديل الأهداف تارة أخري.

٥. تدريب الشباب على المرونة في التفكير والتجديد في الأفكار، وهذا سبيل مهم لإعادة التوازن وتجلية البصيرة، ومن ثم السلوك المتوازن.

٦. تدريب الشباب على التجاوز عن الأخطاء والهفوات، وتغليب السماحة على العدوان والانتقام، فهذا يُساهم في إقامة التوازن ومن ثم الوسطية.

من هنا، يمكن القول أنه بمكن تعزيز ونشر ثقافة الوسطية كمنهج للسلوك لدي شباب الأمة عبر العلوم الإنسانية، وخاصة موضوعات علم النفس، لكن بدون التشدق بشعارات: "أسلمة علم النفس" أو "علم النفس الإسلامي".. فإن ذلك لا يقود إلا إلى سلبيات يتمثل بعضها في الدعوة إلى التحزب أو الفئوية، فليس للعلوم دين معين، أو جنس محدد... بل إن مثل هذه الدعوات تُغاير منهج الوسطية الذي ندعوا إليه.

رابعاً: دور المؤسسات الدينية والدعوية

في بداية الفصل الحالي، أوضحت تقريباً أهم الزوايا السلوكية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تشكل معظم ملامح المجتمع حالياً.. وقد تبين أن الظواهر السلوكية السلبية في المجتمع، بل والخطيرة، تلك التى تمثلت في العنف الصلف، وإثارة الفتنة الطائفية والتردي في الأخلاق تعود من بين ما تعود إلى فهم خاطئ للدين، ومقاصد الشرع.. وقد أتضح أيضاً أن الساحة أصبحت مليئة بغربان الدعوة الباطلة، الذين وضعوا المجتمع في ضبابية معرفية عن الدين، فظهرت

فتاوي العبث، وحُرمت علينا معظم النشاطات اليومية، فالتماثيل حرام والرسم حرام والغناء حرام، وكل شئ في حياتنا أصبح بين حلال وحرام، وأصبحوا يثيرون بين الحين والآخر موضوعات سطحية ومعرفة لا العلم بها ينفع ولا الجهل بها يضر ليجعلونها ذات الأولوية في حياتنا مثل موضوع النقاب، وأركان الزواج، ودخول الحمام بالقدم اليمني أم اليسرى وتفسير الأحلام والعلاج بالقرآن.. إلي آخر ذلك من موضوعات، قد أدت بنا إلى مزيد من تسطيح العقول، والبعد عن التفكير الفعال..

حتى أن القنوات الفضائية التي أطلقت على نفسها "إسلامية متخصصة" أعتقد أنها ساهمت في تكريس التطرف لنظرتها المختزلة للإسلام، فقد جعلت كل حياة الإنسان ونشاطه مجرد أدعية وقراءة للقرآن الكريم وأداء الفرائض.، فقد نسيت أو تناست مهمة الإنسان المتكاملة على أرض الله، أعمارا وعبادة، تقدماً وازدهاراً..

كل ذلك يحدث على صعيد وسائل الأعلام المختلفة، في الوقت الذي تقاعصت فيه المؤسسة الدينية في الدولة عن دورها الفعال.. والذي يمكن تلخيصه ببساطة في "ضبط إيقاع المعرفة الدينية داخل البلاد"

إنه من الصعب على المواطن أن يحدد للمؤسسة الإسلامية دورها، ذلك الذي تعرفه جيداً، لكني على الأقل أعرف ويعرف كل مواطن أن الأمور قد تطرفت وأنها تحتاج جهداً وحسماً..

أما منظومة الدعوة في بلدي، فمع كل الاحترام للقائمين عليها ، أقول : أنه قد أصبح من اليسير أن يصعد على منبر رسول الله كل من يريد - بلا ضابط ولا رابط - أن يخطب في صلاة الجمعة، وهذا يحدث في كثير من المساجد والزوايا الصغيرة، وهذا أمر في منتهي الخطورة، وقد سمعت عدة مرات أن الوزارة بصدد حصر وحظر.. ولم أري نتيجة للحصر أو الحظر حتي الآن.. فلا يجب أن يصعد على المنبر في خطبة الجمعة إلا من لديه التأهيل المناسب والخبرة المناسبة، وألا يقل العمر الزمني لهذا الخطيب عن أربعين عاماً لضمان الخبرة..، ويجب ألا يطول بقاء الخطيب في مسجد واحد أكثر من ثلاثة أشهر، فإن كان مسلكه إيجابياً

فإنه يفيد في أماكن متعددة، وإن كان سلبياً فلا نترك له الفرصة لتعميق السلبية في مكان واحد، وحتى لا يصل بالمواطنين إلى درجة التطرف أو السطحية.

ولن أقول يجب إغلاق الزوايا الصغيرة أسفل المنازل، تلك التي انتشرت بطريقة مفزعة، بل يجب أن يُحظر صلاة الجمعة فيها، فصلاة الجمعة يجب أن تكون في المسجد الكبير، أو المسجد الجامع، وهذا يؤدي إلى مزيد من الضبط المطلوب.

ويجب تشديد الرقابة الفعالة على الخطباء بطريق غير مباشر وباحترام، والاستماع إليهم بين الحين والآخر، وكتابة التقرير اللازم.. الذي يجب أن يتناقشون فيه، لحذف الخطأ واستحسان الجيد منه.

أما تدريب الدعاة فإنه يحتاج إلى كثير من الاهتمام.. يحتاج إلى تحليل للمادة العلمية التي يجب أن تُقدم في هذا التدريب، والاطمئنان على حسن الاضطلاع على الجديد والحديث من المراجع الموثوق فيها، والتي تتصف بالمعاصرة وعدم التزمت وتسير في طريق الوسطية..

ومن واقع التخصص في مجال علم النفس ودراساته، وما أنعم الله به عليّ من مؤلفات في مجال علم النفس من منظور إسلامي، فإني أوصي المسئولين عن تدريب الدعاة بضرورة دراستهم لموضوعات علم النفس، تلك الموضوعات التي تُعطي فهماً أوضح لمقاصد الشرع، مع العلم بأن ليس كل متخصص في مجال علم النفس يستطيع أن يصل في تدريسه لموضوعات علم النفس في مجال الدعوة إلى الهدف المنشود .

إن الأمر يتطلب من المتخصص ثقافة إسلامية ممتزجة مع مفاهيم سيكولوجية فتنتج للداعية الفائدة المرجوة، على ألا نهمل مجال سيكولوجية الاتصال الجماهيري، ذلك الفرع من علم النفس الذي يمكن أن يفيد الداعية فائدة كبيرة حيث اكتساب مهارة الاتصال الجيد بالمصلين، وإدارة للحوار الفعال معهم، واكتساب القدرة على معرفة الموضوعات ذات الأولوية في خطابه بما يتناسب مع ظروف المجتمع والظواهر السلوكية المستجدة فيه...

إن فعاليات تدريب الدعاة ، يجب ألا تهدف إلى تقديم المزيــد مــن العلــوم الإسلامية البحتة بقدر استهدافها إكساب هؤلاء الــدعاة مهــارات الــدعوة وفنونها..

وعلم النفس هو العلم المُرشح للمساهمة في الوصــول إلــى هــذا الهدف، بما يمكن أن يُعطيه من فهم ســلوكي للــنص القرآنــي والحــديث الشريف ومقاصد الشرع ، إضافةً إلى إكساب الدعاة المزيد مــن مهــارات الاتصال الجماهيري، والحس السيكولوجي..

تم بحمد الله تعالي، وعلى الله قصد السبيل...

كُتب أخرى للمؤلف

** **دافعية الإنسان** (بين النظريات المبكرة والاتجاهات المعاصرة) - دار الفكر العربي.

** **الحاجات النفسية فى حياة الناس اليومية** (قراءة جديدة فى هرم ماسلو) - دار الفكر العربى.

** **معالجة اللغة واضطرابات التخاطب** - الأنجلو المصرية.

** **الميتامعرفية** - الأنجلو المصرية.

** **علم النفس الفسيولوجى** - الأنجلو المصرية.

** **الشعور بالقرف** (فى دنيا العنف والصلف)- الأنجلو المصرية.

** **الأساليب المعرفية** (بين النظرية والبحث) - الأنجلو المصرية.

** **نظرية الركائز الأربعة للبناء النفسي** (فهم سلوك الإنسان فى ظلال الفرقان) - دار صفاء - الأردن.

** **الضغوط النفسية فى مجال العمل والحياة** (ترجمة) - دار صفاء - الأردن.

** **الميتاانفعالية** - دار صفاء - الأردن.

** **الإعاقة العقلية** - دار صفاء - الأردن.

** أساسيات **تحليل الكتابة باليد** - - دار صفاء - الأردن.

** **اضطرابات التخاطب** - دار صفاء - الأردن.

** **الإنسان العربى بين حاجاته النفسية والشعور بالقْرف** - دار صفاء - الأردن.

** **صعوبات التعلم** - الدار الصولتية - السعودية.

مطابع جامعة المنوفية

فى هذا الكتاب ..

تنظير للوسطية كمنهج سلوكى من الواجب أن يسير الإنسان عليه فى حياته، فى توازن بين المادية والروحية .. ولأول مرة فى الدراسات السيكولوجية يتم تناول مفاهيم الوسطية وتفسيرها سلوكيا .. وموضع الوسطية فى البناء النفسى للإنسان.

وقد عرض الكتاب للمعوقات التى تمنع الإنسان من الأخذ بالوسطية ،وكذلك كيفية تعزيز الوسطية بين الشباب ومن خلال تربية الطفل.

أرجو أن يكون الكتاب فى خدمة الاتجاه بالمجتمع إلى الاعتدال والبعد عن التطرف ،من خلال الدعاة والمعلمين والإعلام على اختلاف صوره.

الناشر



المؤلف :

د. حمدى الفرماوى

أستاذ علم النفس التربوى - جامعة المنوفية.

- له مؤلفات وترجمات عديدة فى مجال علم النفس التربوى وعلم النفس من منظور إسلامى.
- له بحوث متعددة فى مجالات علم النفس منشورة فى مج... علمية دولية ومحلية.
- حازت بحوثه على ... التشجيعية عام ٢٠٠٥.
- رئيس الجمعية الم... النفس.



مطابع جامعة المنوفية

مكتبة الأنجلو المصرية
THE ANGLO-EGYPITAN BOOKSHOP